- ٩ -

لم يقل لى ماهو نوع الافكار التى راح يلوكها طوال الثلاث ساعات التى قضاها جالسا على الاريكة فى الميدان قبل ان يعود الى الفندق . عموما أنها من تلك الاشياء التى حتى شخص مثله لايحب البوح بها للآخرين . بل يمكن جدلا ان يحكى بلا خجل ان شخص ما قد اطاح به ارضا ، لكنه من الصعب ، حتى وان كان قديسا ، ان يبوح بما دار فى ذهنه فى الساعات التالية . يمكن اذن ان نتخيل انه ظل هناك طوال ذلك الوقت ، جالسا فى اكثر الاركان ظلاما التى امكنه العثور عليها ، يتحسس فكه بينما يقلب افكاره غير السعيدة بصفة خاصة ، ويمكن تخيله ايضا مثله مثل اى رجل فى نفس هذا الموقف يعانى صعوبة ما فى مواصلة التفكير المنطقى ، لا لأنه شعر فى هذه اللحظة بغضب وكره تجاه جب ، وانما وفقا لما قاله فيما بعد (" لان ذلك كان كل ما يمكنه عمله ، او كل ما علموه له : يضرب ويهرب كنت عبيطا : لقد ذهبت لمقابلته هكذا .. بلا سابق انذار ، فاعتقد اننى من رجال البوليس . لقد شاهدنى اصل الفندق بعد فترة وجيزه من قيامه بهذه السرقة ، ولاشك انه لمحنى ايضا فى صالة التدريب ، وعندئذ تخيل ... اصغ : ان الحل الوحيد بالنسبة له فى المواقف الصعبة ، كأن يضبطه احد فى منتصف الليل فى غرفة خادمة او ان ... ـ فقلت فى نفسى ، وهكذا ، كان هو اذن . لم تقل لى انك تعرف هذه القصة ايضا . ترى هل روز .. ـ ما علينا . تخيل الموقف : هؤلاء النسوة المرتديات جاكتات الرجال الشديده الوسع بالنسبة لهن ، والتى تصل اكمامها حتى اطراف اصابعهن ، وكل هؤلاء الاطفال أنصاف العراة مثلما كان هو واحدا منهم ، ثم انه من كثرة ما اعطى واخذ من اللكمات نجح فى ... ـ فقلت فى نفسى : اخذ ، لقد كان مشهورا وهو فى اوج مجده انه بارعا فى الافلات ـ . وما علينا ، اود ان اقول : لقد وصل بفضل اللكمات التى كان يعطيها .. ـ وقلت : انه لايود حقا ان يغير هذا الموضوع . مثله مثل اولئك الذين لا يكفون عن عزف الجيتار مع مراعاه الا يتصببون عرقا من كثرة العزف ولايمكن لومهم على ذلك . لكن لا تتخيل اننى ... ـ اننى لا اتخيل شيئا . على الاقل احاول الا اتخيل اى شىء . الا ان كل الذى تعلمه فى حياته من قبل ، هو توجيه اللكمات ـ . وان يبدأ بالضرب ، بلا مقدمات ، وبأقوى ما يمكن . أعتقد انك ادركت ذلك ؟ ») ، اى انه

لم يشعر بالغضب او بالكراهية ، لكن لان اللكمات هى اللكمات وان لحم الانسان ، سواء اراد او لم يرد ، يتألم ، ويظل واهنا ، مثيرا للشفقة ثائرا . وحينما قرر العودة ، تذكر انه من المعتاد ان يمضى المرء نائما ، او على الاقل ممددا ، داخل مربع ما (يتقلب ، يجبر جسمه المهان على الحركة ، والا سيجدونه فى الصباح الباكر مازال جالسا فوق الاريكه ، مثل خيال المآتة ، الذى لم تعد حتى الطيور تهابه بل ويأتون وهم يزقزقون ويتزاحمون للوقوف فوقه : وقال لى فيما بعد « حتى ذلك ليس بالامر السيىء ، فإذا ما تأملنا الموضوع من كافه نواحيه ، فلا بأس من ان يكون للمرء ولو فائدة خيال المآتة للعصافير الصغيرة او حتى كورة تدريب ، أليس كذلك ؟ ») ، على اية حال كان الوقت قد تأخر بحيث كان شبه متأكدا من ان روز قد فرغت من خدمتها وانه لم يكن من المحتمل لقائها .

وفى طريق العودة ، يبدو لى انه لمح ما يلى : اللمبة المائلة الى الاصفرار والوحيدة التى تضىء المدخل اسفل السلم ، وهى تعكس على الحائط فى آن واحد خيال درابزين السلم وخيال مونتيس الممشوق المضحك وهو يرتفع على الدرجات ، فيزداد طول الظل بشكل ساخر ، منحنى ، كأنه معينات متداخله ، ولاصوت آخر فى سكون الليل سوى انين الدرجات ، وربما الصوت القصير المميز لتنفسه ، دخول الهواء بصعوبة عبر فتحات انفه المسدود بالتجلطات ، وربما ايضا ، تبادرت من الخارج اولى هبات الريح وهى تمر بحفيفها المتقطع الحريرى فوق الجمالون ، وتستكين الريح السوداء ، تتردد ، وتخفق تحت ثقلها فى انات طويلة عبر المراين المتعبة ..

وفى الطابق الاعلى ، فى الطرقة الغارقة فى الظلام ، وقف الآخر يرتجف فى بيجامته النحيله (قفز فجأة من الفراش فى اللحظة السابقة عند سماعه صوت باب المدخل ، قفز بخفة القط المتوثب ، اطفأ نور غرفته ، وجرى دون حتى ان يتمكن من انتعال شبشبه ، والأن) انحنى ، كتم انفاسه ، يتراجع الى الوراء كلما امتد ذلك الظل غير المستوى على الحائط ليواصل صعوده وحيدا بشىء من الحزن والتصلط البطىء ، العناد ، المأساوى . ثم حينما وصل الى الطابق الاول ، استدار فجأة ، واصبح فى امكان موريس الأن ان يراه وجها لوجه ، مضاء من اسفل مثل الممثل بضوء الدرابزين ، وقد ارتسم عليه الخطان الاسودان المنسابان من انفه ، وقال موريس فى ذهنه : « أهلا : المهرج يلعب الملاكمة . عجبا ! ان الضربة كانت قاسية . عجبا ! اننى لأتساءل ... » ، ثم تمالك ، واسرع الى غرفته بعدة خطوات سريعة ، واغلق الباب ، بنفس حرص القط الحذر ، وظل غير عابىء بالرجفات التى تهز كيانه داخل البيجامة النحيلة ، ظل ساكنا ، ينصت اذنه ملتصقة بالفاصل الخشبى بينما صوت الخطوات وهى تصعد آخر الدرجات يقترب ، يمر بالطرقة بالقرب منه ، يتوقف قليلا عن بعد ، صوت . مفتاح يتحسس

فى الظلام . ثم صوت الباب وهو يغلق ، ثم لاشىء ، بينما اسرع موريس وهو يرتجف واضاء النور ، ارتدى الروب دى شامبر القديم الملقى على الارض قرب السرير ، وانتعل شبشبه المصنوع من الجلد البالى ، وعقد ايشارب حول عنقه وانسل ثانية بلا صوت فى الدهليز .

ولاشك انه تمكن من تصفيف شعره قبل ان يطرق الباب ، على حد قول مونتيس فيما بعد ، لانه بدا له فى فتحه الباب كشخص خرج توه من عند الحلاق وليس من الفراش ، كما كان قد ظل يرقب ما يدور فى الغرفة وهو ينظر من ثقب الباب حوالى عشرة دقائق قبل ان يطرقه . وذلك ما ادركه مونتيس وقاله لى فيما بعد لان الصوت راح يرتجل آليا ، وكانه لايدرك (او كأن صاحب الصوت لايهتم بان يعبأ الصوت) شىء من الابهام ، عبارة من تلك العبارات التى لا يلتفت اليها قائلها ولا سامعها ، عبارات لا معنى لها ، الا ان كانت ارادية معتمدة على الشكل غير المكترث ، كنوع من آداب المجاملة ، شىء من الوقاحة الارادية ، الخالية من الخجل ، معناها اجمالا : « هل انت مريض ؟ اعتقدت .. لقد خيل الى انك تئن ... » ، فقاطعه مونتيس : « أئن ؟ » ، ويستمر موريس فى تأمل محتويات الغرفة ، وقد لمح الفوطه الملطخة بالاحمر على حافه الحوض ، ومازالت المياه تنساب من الصنبور ، وعلى المعطف بعض البقع ، فقال :

« لكن ، ما الذى حدث ؟ هل اصبت فى حادث ؟ » وجاهد مونتيس ليحافظ على فتحه الباب المواربة ضد الضغط الصبور المتواصل للزائر : « لا شىء . اشكرك اعتذر عن ازعاجك . تصبح على خير . اننى » . ثم قال لى مونتيس فيما بعد (لم يكن الامر ان موريس نجح فى توسيع فتحه الباب لكن كان من الصعب تخيل ان يتمكن رجلا بالغا من التسلل داخلا من فتحة بهذا الضيق) واضطر الى ان يستدير ليراه بما انه لم يعد واقفا فى الردهة ، وانما فى منتصف الغرفة الضيقة داخل الروب دى شامبر الطموح البالى البنفسجى اللون ، والكوفيه الرشيقة ، وشعره المصفف ، واخرج من جيبه علبة سجائر ، ومدها ، ثم لم ينتظر حتى رفض ضيفه ، وانما سحب سيجارة ووضعها فى فمة واشعلها ، ثم قال وهو يسحب نفسا طويلا او قال وسط الدخان بينما يده الاخرى تشير الى الملابس الملطخة بالدماء : « كان يجدر بك ان تستدعينى ، اننى .. »

ـ اصغ ، وبدأ مونتيس (هذه المرة كان قد فتح الباب بوسعه وارتجف صوته من الغضب) اننى ، .. » ثم شعر ثانية بشىء دافىء حلو المذاق ينساب بطول شفته العليا وظهرت فجأة بقعة حمراء فوق قميصه . اتجه ناحية الحوض ، بلل طرف الفوطة وانحنى . وحينما استدار ، ممسكا بالفوطة تحت انفه ، كان الباب مغلقا وموريس جالسا على سريره ، وسيقانه مدلاه ، ينظر اليه بلا اى حياء . « عجبا ! لن ادهش ان كان انفك مكسورا . ! ألذلك كنت تتنفس كعجل البحر وانت

تصعد السلم ؟ » . ثم نهض ، ألقى بسيجارته التى ما كاد يجذب منها نفسا واحداً فى سلة المهملات ، نفث الدخان من فتحتى انفه وقال بغظاظة : « انه البطل الذى جعلك هكذا ؟ »

وتمتم مونتيس : « الـ .. » . تلعثم ، تهته . وتغير صوته فجأة بينما احمر وجهه بحدة : « اصغ ، لا اسمح لك .. » ، كان يصرخ تقريبا . لم ينه جملته ، توقف فزعا ، خجولا ، ظل واقفا ، والفوطه فى طرف يده التى تشير بحماس ناحية الباب ظل واقفا تحت ضوء اللمبه الساطع بشكله الحزين المهان ، وقميصه المفتوح الذى يكشف عن صدر نحيل ، خالى الشعر ، غريب البياض ، بينما تعلقت قطرة دم على حافه شفته العليا الملطخة .

وقال موريس : « ستوقظ الناس » . كان الصوت محايدا ، غير ذاتى ، مجرد تقرير واقع . ثم تغير ـ بدون سخرية ، وانما بضيق ، وان كان بلا خشونة ـ ليقول : « لو تخيلت انك ستوقف الدماء بهذا الصراخ » ، وفى نفس اللحظة نهض فى قفزة قائلا : « انتظر سأ .. اعرف ما يجب عمله ... » ثم اضاف : « هيا .. لاتكن عبيطا ! » ، وبينما كان مونتيس يحاول التخلص منه ، ويحاول ، بقدر الامكان ، دون ان يكف عن وضع الفوطة المبللة تحت انفه وينبعث صوته من تحتها باحتجاج مرتبك عنيف ، متراجعا امام اليدان اللتان تبحثان عنه ، الى ان لامس خلف ركبتاه حافه السرير ، فاختل توازن سيقانه ووقع جالسا تقريبا فى المكان الذى اخلاه ضيفه ، لكن ما هى الا لحظة حتى داخ واختل توازنه وانكفأ الى الخلف بينما ارتفعت ساقيه من على الارض وقد امسك بهما ضيفه بعنف ، وفى نفس اللحظة وجد نفسه ممددا ، وقد ابهره الضوء المنبعث من اللمبه الكهربائية والمعلقة فوقه كعين شائكة وامامه ارتسم صدر موريس ورأسه المنحنى عليه ، وكأنه مقصوص من ورق كرتون داكن ، وفى نفس اللحظة سمع الصوت وهو يسقط عليه من عال ، كأن احد الميكروفونات المعلقة اعلى السارى فى الملاعب الرياضية يتقيأ ، راعدا ، إلهيا وآمرا : « احسنت صنعا ! لا تتحرك ، يجب ان تظل ساكنا ، انها افضل وسيله لكى ... »

وكف عن الصراع . فعلى حد قوله : « ان الشىء الوحيد الذى لا يمكن مقاومته هو الصوت ، خاصة عندما يستخدم كالمبيد الحشرى . فظللت بلا حراك ، مغلوبا على امرى . اتساءل عما عساه يريده منى ، وانا ارقبه يروح ويعدو فى ذلك الروب دى شامبر الانيق البالى ، وكوفيته الحريرية حول عنقه مقلدا تلك الصور الفوتوغرافية التى يراها فى المجلات للرجال ذوى الأناقة او الكتاب المشهورين فى منازلهم . وكل ما كنت اتمناه هو أن يكف الدم عن الانسياب لكى اتمكن من النهوض واخراجه من الغرفة . لكن حاليا كان ينساب . كنت مجهدا ، خائر القوى

لعلك تدرك ، كان الضغط كثيرا . لقد فعلت ورأيت الكثير طوال ذلك اليوم والآن كنت فى تلك الحالة التى يتحمل فيها المرء اى شىء فى سبيل الا يقوم بأى حركة ولا بأى جهد . لقد تغلب على بأن نجح فى اجبارى على الاسترخاء . ولاشك انه كان يعلم ذلك ، وكان يعلم ان الفرصة سانحة لينتهزها ، لكن كل ما استطعت عمله هو ان اظل بلا حراك لأطول فترة ممكنة آملا فى ان انسياب الدم سيتوقف مثلما قالى لى . اذن ، تركته يتحدث . وحتى اليوم مازلت اتساءل ان لم يكن كل ما كان يرمى اليه فى ذلك المساء الا الرغبة فى الكلام ، او انه كان يعانى من الارق او اى شىء من هذا القبيل ، وانه استغل اول فرصة حينما سمعنى عائدا من الخارج على اى حال ، ذلك هو مانجح فى ان يوهمنى به ، وربما كان صحيحا الى حد ما مثل اولئك الاشخاص الذين يعرفون جيدا انه حينما يتعامل مع امرأة يب ان يتحاشى الحديث عن الشىء الوحيد الذى يعنيهم ولماذا هو معها ولايلعب البلياردو او يثرثر مع رفاقه ، او مثل الذين يختلقون التوافه التى لاتعنيهم ويصدقونها . لابد وان يكون فى الامر شىء من هذا القبيل ، والا فكيف نفسر كل ما يحكيه الرجل لامرأة ما ، قبل ان تقرر منحه ما ؟ ..

فقلت ـ : مهلا .. يبدو انك تعلم عن هذا الموضوع اكثر مما يبدو عليك ..

ـ ليس من الصعب تخيل ذلك .. (كنت ارقبه خفيه ، لكنه لم يهتز ، لم يرجف ، بل يبد عليه انه تفوه بآخر ما يمكن ان نتوقعه منه . وقلت فى نفسى « لكن ، لاشك انه بمقدوره ان يحكى قصة اباحية يحمر لها البدن خجلا بنفس هذه اللهجة غير المكترثة التى يمكنه ان يتحدث بها عن افضل عدسة يمكن تصوير السماء العاصفة بها ، او مغامرات بطل احدى الرسوم المتحركة ، أو آخر معركة لمجلس البلدية ، بشأن موقع مبولة عامة قرأ عنها فى باب الاخبار المحلية بالجريدة . لكنه كان يواصل الحديث :) الا انه كان فى غاية اللؤم ..

فقلت ـ : من تقصد ؟

ـ هو ، موريس . لان صوته فى هذه اللحظة كان يشوبه بعض النواح ، شىء يثير الشفقة ، بينما كان يحدثنى عن تلك العمة العجوز التى كانت توقف نزيف انفه حينما كان صغيرا ، كما تحدث عن طفولته ، وعن قصرهم الريفى التاريخى القديم فى بريتانى ، وبعد ذلك .. نعم ، ربما كان شديد اللؤم ، ومع ذلك ..

فقلت ـ : الناس ليسوا بسطاء . لكن بصفة عامة ، انهم ليسوا بارعين فى اللؤم الا حينما لا يتعمدونه ، ولا بارعين فى الغباء الا حينما يتعمدون الذكاء » . وخيل الى اننى اراهما ، الاثنان بداخل تلك الغرفة فى منتصف الليل ـ لابد وان الليل كان قد انتصف فى تلك اللحظة ـ وفى الخارج كانت نوبات الريح المتقطعة تعصف بالجدران ، وبالضوء الشاحب للمبة ، بينما راح الآخر ، ملك الموضة الذى نزل عليه التخفيض ، يسير فى الثلاثة امتار من البلاط العارى الموجود بين

الدولاب والسرير وحدقتا مونتيس تتابعانه جيئة وذهابا ، وقد اعتلت نظراته شيء من الاهانة والاحباط المرتسم على ذلك الجزء الذى يعلو الفوطة التى مازالت اليد النحيلة تضغط بها ، وفيما بعد ايضا - لابد وانها كانت النافذة الوحيدة المضاءة ، كأنها رفض ما ، او دليل أخير على استمرار الحياة ، مثل التأكيد المتعالى الذى لايقهر لضمير لايقهر بين الضمائر الطيعة النائمة ، والاموات الطيعة ليلا - ان هذه المحادثة ، والحوار المذهل الذى قاله لى مونتيس (لأن الشخص الآخر كان قد حقق اغراضه - ومن يمكنه ان يتبينها ، أو يعرفها ، او حتى ان كان هو ذاته يعرفها ؟ - فعلى الاقل وصل الى الآتى : ان مونتيس قد تحمله ، اقره ، على الاقل لدرجة ان يتحمل الاستماع اليه وان يجيبه ، ثم جلسا الاثنان على حافة السرير ، موريس يقوم من وقت لأخر ، يأخذ منه الفوطه عنوه ، يذهب الى الحوض يشطفها ويعيدها مبللة بالمياه الباردة ، ثم يواصل الحوار من نفس النقطة التى توقف عندها فى اللحظة السابقة قائلا) :

« ذلك الوغد ، لكنهم كلهم اوغاد هنا . سيقولون لك انه غجرى لكن الآخرين وهؤلاء النسوة اللاتى لايستطعن قول اية كلمة بلا صراخ يخيل لمن يسمعهن انهن دائمات الشجار والسب او يهاجمن جزء من تراجيديا يونانية وهن يلعن حياة الألهة أو القدر فى حين انهن فى الواقع ينادون اطفالهن لتناول الحساء او يقصصن على جاراتهن الثمن الذى دفعنه فى الفاصوليا الخضراء صباح ذلك اليوم فى السوق .. » ، وقال مونتيس : « اكرر لك اننى وقعت بينما كنت تنزل السلم .. » ، وهو : « نعم ، لكننى اعتقدت فى بادىء الامر ان شخص مثله قادر على .. لكن اعتقد انك واثق من اننى لم افكر فى انك من ذلك النوع الذى يتشاجر فى الشارع مع اول من ... » ، وقال مونتيس : « حمدا .. لقد توقف النزف واعتقد اننى سأستطيع .. » ، وهو : « لا ، اصغ ، يجب ان تظل فتره فى هذا الوضع بلا حراك والاسيعاودك النزف اصغ اننى صديقك وسبق ان قلت لك لكنك لا تصدقنى لا اعرف ما الذى قالوه لك عنى انك مخطىء فى عدم تصديقى منذ المرة الاولى التى رأيتك شعرت انك لست مثل الآخرين الذين اعتدنا رؤيتهم هنا فى مثل هذا الفندق الحقير و ... » وضحك مونتيس قائلا : « تعلم ان سعره تقريبا اكثر مما يمكننى دفعه .. » ، وهو : « لكنها ليست مسألة نقود انك اقصد انهم هنا لا يفكرون الا فى هذا ولا يعرفون سواها وكل هؤلاء المتسكعون هنا الذين يلهثون خلف الدراهم مثلهم مثل المفلسين الذين لديهم الكثير ولا يعرفون اين ينفقونه وكلهم مستعدون لعمل اى شىء بغيه الحصول على المزيد ، واكثر منهم النسوة اللائى يبعن انفسهن ، والرجال ايضا ، اى شىء بما فى ذلك القتل ياالهى ! النقود ان اردت لكفانى ان .. لكننى افضل الصمت .. » ، وقال مونتيس : ما الذى تعنيه ؟ » وقال موريس : « لا شىء اننى لست من ذلك النوع ان كل ذلك

الموضوع المقزز انها خسيسة لكن لا لن انساق ، ان والدى ، لاتتخيل اننى اتصور نفسى ابن جنرال ، اننى اعرف الكثير عنهم لكى انساق فى تخيلات من ذلك النوع ومع ذلك ان والدى ... » ، وقال مونتيس : « لكن عما تتحدث ؟ » فقال : « اتحدث ما على الا ان افتح فمى لكى .. لكن مثل هذه الامور قد لاتعنيك .. ان الذين مثلك ومثلى ... » ونظر اليه مونتيس ، مندهشا الآن ، وكأنه يراه لأول مرة ، هنا يستعرض نفسه فى زيه المضحك الطموح (لكن ، للآن على الاقل ، لم يكن لذلك اية اهمية ، على حد قوله لى فيما بعد : فلا شك انه لم يكن بوسعه ان يستغنى ، ان يمنع نفسه ، مثلما لا يستطيع الا يلقى بنظرة خاطفة فى المرآة ليعدل من ربطه عنقه قبل ان يدخل فى اى مكان او قبل ان يوجه الكلام لاى شخص ، لفتاة او لأحد الزبائن الذين يلقاهم ليعرض عليهم ماركة سماده المزعوم) ، ووجهه المثلث الضيق فوق الايشارب ، شاحب فى اضاءة شاحبة ، وشعره الباهت ، وتلك النظرة التعيسة ، المكتئبة ، التى تعلو ملامحه حاليا ، خليط من الحيوية ، والحزن يتوسل وكأنه يستجدى ، يطلب شىء ما . وفكر مونتيس فى نفسه : « شىء لا أعطيه له نقدا » . ثم فكر ثانية : « اول مرة تصورت انه يريد ان يبيع لى شىء ما ، وربما ، بل وبكل تأكيد ، فى هذه الساعة ايضا حينما انتظرنى على بسطة السلم ، واقحم نفسه هنا بغيه شىء من هذا القبيل ، وقبل ان ينصرف سيعود الى موضوعه . لكن الآن لم يعد يفكر فيه ، وان كان جليا انه يود الحصول على شىء ما منى ، لكن من نوع آخر » . وتساءل ثانية : « ترى ماذا ؟ » وراح يفكر بشىء من الاندهاش ، او الحرص تقريبا ، وكله رغبه فى ان يشيح بوجهه شفقة وحياء » اكثر منه ادبا ، وكأنه شاهد رغم انفه على مشهد لايجب النظر اليه : « انه تعس . يتألم . ترى مما ؟ » ، بينما كان ينصت الى الآخر وهو مستمر فى الحديث ، غير عابىء بالساعة ، يخلط التراجيديا اليونانية ، ومغزاها الخفى المبهم غير المفهوم ، ووالده الجنرال ، بصوت يشوبه البكاء ، والحماس ، والحدة على التوالى ، ثم يعود الى طبيعته ، يبوح بمكنونات نفسه ، وكأنهما يتحدثان ندا لند ، فى لهجة محادثة اجتماعية بين شخصين من نفس المستوى الاجتماعى يفهمان بعضهما تلميحا ، ضلا خطأ فى مكان ، فى مكان لا يليق بكل منهما .

كان يبدو وكأنه يعتبر ان مجرد اقامته فى هذا الحى اهانة ، والنزول فى هذا الفندق اهانة له كمندوب رسمى للأسمدة . كان ذلك الوضع يثير فى نفسه ما يشبه الحنق ، مرارة لا يمكن الخلاص منها ، وان تظاهر ليبدو اعلى من هذه المضايقات ان يتجاهلها ، كما جاهد ليتجاهل البقع التى على الروب دى شامبر المزعوم الذى يرتديه ، كما كان حليا انه يتجاهل السعر الباهظ لسجائر الطباق الاشقر التى كان يدخنها واحدة تلو الاخرى ، وهو يمسكها بعدم اكتراث بين السبابه والأوسط ، ثم

يقذف بها واحدة تلو الاخرى فى سلة المهملات حيث كانت تنطفىء بعد ومضه قصيرة .

وفيما بعد ايضا ، ربما حوالى الساعة الواحدة صباحا : فى هذه اللحظة كان هو واقفا ومونتيس مازال جالسا ، لم يعد يمرر الفوطة تحت انفه الا على فترات متباعدة بحركة آلية ، من باب الاحتياط ، لان النزف قد توقف تماما ، كان من الانهاك والتعب حاليا ، بحيث خيل اليه انه يسبح او بمعنى ادق يطفو بين مسطحين من المياه ، كانت الغرفة تبدو له اشبه ما تكون بحوض سمك تشوبه الخضرة الزرقاء يشتق ببطء عبر مساحة شاسعة من الزمن الاسود ، فى لانهائية تسبح فيها لفحات الريح الاسود اللامعقولة والعشوائية ؤ مجرد فراغ ، وعنف وهرجلة - فى حين ظلاهما الاثنان هو وموريس ، بنفس سحنتهما المصنوعة من الورق لأشخاص كأضغاف الاحلام ، تذكره بسمكتين ميتتين ومع ذلك مستمرتان فى ادعاء الحياة رغم بطنهما المنتفخة . (« فلقد كان متعبا مثلى . وان لم يكن لنفس الاسباب ، لكن الامر سيان ») ، وظل مونتيس يمسح انفه آليا كالعبيط بينما ظل الآخر يشرح له (كان قد استعاد ثقته وعاد صوته الى تلك النبرة المتعالية ، الطنانة المزدردة ، وبينما كان مونتيس يسمع ما يحكيه ادرك أنه يعود الى الموضوع الذى يشغله) ، اخذ يشرح له ان ذلك البحر الابيض المتوسط ، تلك البحيرة ، هذا المستنقع ، هذه البركة ، لابد وان يكون قد تعب من استخدامه كبالوعة ، بالوعة لجمع التاريخ ، وقد امتلأ منذ الفى سنة عندما كانت اقدم شعوب العالم تلقى فيه بمخلفاتها ، لدرجة ان رائحته بدأت تفوح اكثر من اللازم ولاشك ان التاريخ كان يأتى هنا كل مرة ليغسل غسيله القذر - تلك كانت الكلمة - بين تعداده النتن المكون من شعوب قديمة استقرت هنا ، فيما حوله ، فى الصف الاول فى اماكن الحلبة (نابوليتان ، مشرقيون ، غجر ، يونان ، كاتالان ، مالطيون) يعدون الضربات ويصنعون نفس جيوب الاشخاص القادمين من تكساس او ابعد منها عابرين المحيط ، وغيرهم ممن عبروا القارة ، ليأتوا (التاريخ يزج بهم فى هذا المستنفع حيث يعود اليه منذ خليقة العالم مثلما يعاود القلب تقيؤاته) يتخبط ويفرغ جوفه فى بحر كل الناس وكل الآلهة ، بما ان شعوبها المرتزقة الساحلية قد اخترعت طاقما كاملا من الآلهة لارضاء كافة الازواق كمعدات للتصوير مثلما تفعل . بسجاد أزمير وتماثيل الرعاة المصنوعة من رخام كاراره فاخترعوا ابتدأ من الآلهات الزانيات حتى انبياء الصحراء السود المنعزلين . وما أن وصل الى هنا ، حتى توقف الصوت ، لفترة وجيزة ، بينما راح يلقى بنظرة خاطفة ناحية مونتيس ، يترقبه ، متحينا ولاشك توقيت الوثبة ، رد الفعل ، التكذيب الاهانة ، ولعله قد وصل الأن الى هذه المرحلة : مرحلة الاغتصاب ، والاعتداء ، فى تلك المحاولة النهمة للشىء الوحيدة الذى لم يكن

مونتيس يستطيع ان يظهره له ، لا من حيث الرفض فى حد ذاته ، او شىء ما من هذا القبيل ، ان كان فى مقدوره ان يعبر له عن ذلك ـ وهو الذى لما تأخر فى رفض لمسه عطف لكلب حتى وان كان جربانا ـ ولكن لانه لم يكن فى مقدوره ، وذلك لانه حتى وان عرف الاسم ـ مثلما يعلم المرء من الكتب عن وجود المجرات ، وروكفلر والفيروس ـ الا انه كان يجهله تماما ، ولايعبأ به ، بل ولا يعبأ بعدم اكتراثه ، من اى شخص كان ، سواء كان رجلا او امرأة ، ولابما يمكنه ان يفكر فيه . وبينما راح يواصل سرد ذلك الموقف كان يبدو لى اننى اعيشها الأن اكثر منه ، او على الاقل كان بمقدورى اعادة تكوين شكل اجمالى لها اقرب ما يكون الى حاجتنا التى لا تكل عن ضرورة المنطق ان لم تكن مطابقة تماما لما حدث ، وفكرت : ياله من غشاش ، ياله من مسكين ، واحد من تلك النفايات التى تخلفها كل الحروب والتى يعد الاموات سعداء الحظ بالمقاونة بهم ، انسان مسقط ـ على الاقل فيما اعتقده ـ سقط من مركزه ، شديد الزكاء لكى لا يحتقر نفسه وهو يشعر بذلك الخجل ، وليس من الذكاء الكافى ليصل الى عدم الاكتراث هذا ، اذن . فقد كان يعانى ، تنهشه تلك الرغبة ، ذلك التعطش العنيف الى التقدير بأى ثمن ، وفى نظرى (ان حصل عليه) لتخلى عن مؤامراته الحقيرة ، ولما تمادى بهذا الشكل فى مخططاته الجهنمية القبيحة التى لم يتوقف عن تنفيذها الا يأسا فى تحقيقها . لان ، هذا التقدير ، قد اصبح بالنسبة له الآن اكثر اهمية من الطعام او حتى من النقود واذا ما كان اخيرا قد اختار طريق النقود فقد لجأ اليه مثلما يلجأ المرء الى اختيار السبيل الوحيد المتبقى : ليس كهدف ، او غاية ، وانما الوسيلة الاخيرة للحصول على مالم يمكنه التوصل اليه من اعتراف منه ـ بما ان كل شىء يشترى ـ حتى وان استعان بالتعب والنعاس ، لانسان لعله الوحيد الذى لايمتلك تلك البضاعة ؛ فياله من احمق لاختياره هذا الشخص دونا عن بقية الناس ، وربما لا ، ليس تماما على العكس فهو حساس ما فيه الكفاية ليقدر المحاولة (اذا ما نجحت) ، وهو اذا ما حصل عما يبحث عنه من مونتيس الذى تعد المحاولة معه قمة الصعوبة ، فإنه سيمكنه الحصول على نفس المعلومات بسهولة فيما بعد من اى شخص ، (لم يكن واثقا : وانما مجرد محاولة) ، فاستعان بكل مهاراته على التوالى (بما فى ذلك الصدق الحقيقى وليس المزعوم : فعبر عن ضيقه الحقيقى ، وعن اضطرابه الحقيقى) ولجأ الى كافة الاساليب ، التحايل ، التناوب فى اللهجة ، الصخب ، الوقاحة ، ثم عاد الى التباكى ، والاحتجاج ، ثم الى عدم الاكتراث ، والتلاعب الماكر ، ووصل الآن الى آخر امكانياته : الفضيحة ، الاعتداء المعنوى ، اذ قال بعد طول انتظار : « لكن لا تتصور اننى اعلن عن الحاد ما ، حاشا لله .. » ، وانتظر ثانية ، تردد نصف ثانية ، وهذه المرة كان مونتيس قد اضطرب ، رفع رأسه ، ينظر اليه بعينيه المندهشتين ، الحزينتين كشخص استيقظ فزعا ،

مبهورا من الضوء العارى ، مذهولا وهو يقول : « ماذا ؟ » ، فقال موريس : « بالطبع ، بما ان كل الناس يؤمنون ، فيكف يمكن إنكاره ؟ » ، فقال مونتيس : « تود القول ببساطه ان .. » ، موريس : « بالطبع . لكننى مخطىء . لقد اسأت التعبير ، انها ليست مسألة عدد : حتى ان لم يكن هناك الا انسان واحد يؤمن به ، فانه أمر لايمكن انكاره ... » ، مونتيس : « أمر ؟ . الايمان ؟ ليس الا .. » ، موريس : « أليس جليا ؟ » ، مونتيس : « يا .. » ، لكنه لم يستطع استكمال عبارته ، سكت ، اعتلته الحمرة ، غلبه الحزن بدوره ، ظل يرقب موريس بنفس ذلك التعبير المشدوه ، وأتخيل الآخر وهو يشعر بتلك السخونة ، بنشوة الانتصار وهى تعتريه وتستحوذ عليه ، بينما هو يفكر قائلا : « اصبت الهدف : » ، ولعله اضاف : « اخيرا . حققت هدف ! » وفى نفس اللحظة (ولعله تدارك على تلك النظرة التى مازالت مصوبة تجاهه بذلك الالحاح الثقيل ، الاخرس ، الحزين) :

« والآن ، ضربة السيف الغاضبة ! » ، وقد استعاد ثقته بنفسه ، وبطلاقة لسانه : « بالطبع لايمكن اثبات ذلك او تفسيره . مثله مثل الايمان بالسعادة ، والتقدم وكل تلك الاختراعات النبيلة . لذلك اعتبر كل اولئك الاشخاص فى غاية السخف . لا ، لا اعنى رجال السياسة ، لا اتحدث عنهم : فالسياسة وسيلة من وسائل التعيش ولايجب ان تكون مخالفا عن الآخرين لتمارسها .. لا : لكنى اعنى اولئك الذين يحاولون الاقناع بشتى الطرق انهم على حق ؛ انت تعرف ، مثل اولئك الاساتذة المعقدون ، اولئك الذين يعبرون عن نظريات فى ثلثمائة صفحة ليثبتوا علميا مسألة مفروغ منها مثل وجود ذلك المسيح او حق العامل فى ان يأكل كل يوم فى ... الامر ليس كذلك . على اى حال لا اعتراض لى على ذلك المسيح ولا على الفراخ المحمرة وانا شخصيا اعتقد ان العامل لديه الف حق فى ... لكن الامر ليس كذلك ، انا ... » ، فقال مونتيس دون ان يكف عن تفرس وجهه : « اسمع ، انا .. لكن .. ما الذى تعنيه ؟ » ، وعندئذ استدار موريس فجأة فى الروب دى شامبر ، ثم توقف بلا حراك ، فى مواجهته ، يتفرسه بدوره ، وقد انحنى قليلا الى الامام ، استجمع شتاته ، كالحيوان وهو يستعد للقفز ، قائلا : « ما الذى .. » ، ثم جذب نفسا طويلا من سيجارته ، واخرج الدخان من فتحتى انفه ، دون ان يكف عن تأمل محدثه ، مثبتا نظراته فى عينيه ، كأنه يعلم محتويات الغرف عن ظهر قلب ، ثم مد يده ، وظل يتحسس المكان حتى وصل الى الطفاية التى على المائدة والتى لم يكن مونتيس يستخدمها الا كمسند للاوراق ، وهذه المرة ، بدلا من ان يلقى سيجارته فى سلة المهملات ، اطفأها بعناية ، ورغم انه لم يدخن الا نصفها ، اطفأها بعدة خبطات من معصمه الى ان صارت اشبه بالاكورديون المتعرج المصنوع من الورق ، ثم دفس يديه فى جيبه بعد ان فرغت مما تمسكه ، وضم ذراعيه ، ظل فترة فى تلك الوقفة المسرحية (وربما كان فى

الواقع خلال هذه الثوانى يتردد ، لم يكن واثقا بالقدر الذى يبدو عليه ، وهو فى هذه الوقفة المعنوية والجسدية لرجل يقف على حافة المنط ويستعد للقفز) ، فقال بصوت متغير ، يكاد يتوسل ثانية وكأنه يبحث عن التوسط لصالحه ، يتأكد قبل ان يجاذف : « الم اقل لك اننى صديقك ؟ لكنك لا تريد ان تصدقنى ، انك .. » (ثم ، قفز الى الموضوع ، على حد قول مونتيس فيما بعد . « ربما لم يتعمد ذلك . ربما كان مازال مترددا عندما فتح فمه باحثا عن تتابع ، عن خداع نفسه ، لكن لابد وانه قد اخطأ الحساب ، فقد توغل كثيرا ، وان مجرد فتح فمه قد افقده التوازن ، كاد يخفق تماما ، ولم يكن بوسعه الا ان يحاول باسرع ما يمكن ان يضع نفسه فى افضل وضع بين النجاة والغرق » ، لذلك حينما فتح فمه كان صوته قد تغير ثانية ، تعلوه الوقاحة ، بشىء من التعالى ، شىء من الاستعطاف الواضح شبه الساخر وهو يقول : « ما الموضوع بالضبط ؟ اتريد ان تعرف ؟ انت ؟ » ، ثم ، اضاف بنفس العنف ، رافعا منكبيه ، مستديرا مرة اخرى على كعبيه ، اجتاز الغرفة بسرعة ، انحنى ، سحب شنطة مونتيس القديمة من تحت الدولاب ، راح يعبث بقفلها ، فتحها ، اعتدل ، استدار ثانية ناحية مونتيس ، مديده ممسكا بلفة بحجم قالب الطوب الاحمر ملفوفة فى جرائد قديمة وهو يقول بنفس الصوت الفظ ، الساخر ، المستعطف : « هل فقدت صوابك ؟ هل نجحت هذه الفتاة فى استغفالك الى هذا الحد لكى تضع هذا الشىء فى اول مكان يتبادر فى ذهن اى رجل بوليس ان يبحث فيه .. يالهى ، كم انت محظوظ ان ... » ، راح مونتيس ينظر الى اللغة وهى معلقة فى الهواء حاليا ، ثم وهى تقفز فى الهواء بخط منحنى لتستقر بجواره على السرير حيث تدحرجت بينما راحت الجرائد تتفكك لتكشف عن صندوق صغير معدنى راح ينظر اليه بما يشبه اليأس ، او الحسرة الخرساء ، بينما الصوت المنتصر ، المثقل بنفس الاحتكار العميق ، وبنفس التباكى العميق قائلا : « مجوهرات بخمسة او ستة آلاف فرنك فى شنطة متسكع ، فى فندق للمتسكعين ، وهكذا فلا هى ولا فتاها جول يخشيان شيئا .. وبالمناسبة : كيف حدث وقد تواجد تماما عند محطة الترام ؟ » ، فقال مونتيس ، (وقد كف عن النظر الى الصندوق ، حملق ، ازداد اندهاشه ، بدا اكثر من اى وقت وكأنه غرقان انقذ لتوه يتمتم) : « هذا .. ماذا ، ما الذى تقوله ؟ ما الذى تتحدث عنه ، اننى ... » فقال الأخر : « تلك الضربة التى اطاحت بك وجعلت انفك يدمى ؟ » ورفع مونتيس الفوطة ثانية الى شفته ، ثم تذكر وخفض يده ، ظل بلا اجابة ، ينظر الى الفراغ ، الى الحائط المستقيم الذى امامه ، بينما راح الآخر يشعل سيجارة جديدة ، وهو يرقبه بطرف عينه عبر الدخان ، طوح بعود الثقاب حتى ان يهتم هذه المرة بالتصويب تجاه سلة المهملات ، اعتدل ، قائلا حتى قبل ان يسمع السؤال : « ماذا ؟ كيف اننى ... يكفى اخذ المفتاح . انها كلها معلقة على لوح المفاتيح ،

وهذه الشنطة لم احتاج حتى للمعافرة لكى .. لكن ، يا الى ، من اين جئت ؟ انهم يقتلون يوميا اشخاص احيانا لمبلغ اقل من الالف فرنك وانت تترك غرفتك ... يا الهى !. ترى هل ستصدقنى الأن ان قلت لك اننى صديقك ؟ »

وقد قال لى مونتيس فيما بعد ان ما انتشله من ذهوله فى ذلك الوقت هو صوت السيجارة وهى تطأطأ فى سلة المهملات ، وعندئذ فحسب ادرك ان الوقت قد مضى ، وحينما رفع عينيه رأى موريس ، مازال متشحا بالروب دى شامبر ، ويداه ثابتة فى جيبه ، وان كان قد ارتكن الآن بظهره الى الحائط . « لاشك انه لم يكف عن ان يتفحصنى طيلة الوقت ، ففى هذه اللحظة لابد واننى بديت منهوك القوى ، مهزوما تماما ، كما يقولون ، لثانى مرة فى نفس اليوم ، او على الارجح على بعد عدة ساعات بما ان الفجر قد شأشأ ، لقد بديت مهزوما حقا ، وإلا اعتقد انه لماجرؤ ... »

ولقد حدث ذلك بمنتهى السرعة : لقد ارتفع صوت موريس فى السكون دون ان يتحرك ، وبدأ صوته بعدم اكتراث ، متمشيا مع وقفته غير المكترثة ، يتباطأ فى القول بنفس عدم الاكتراث ، صوت مجهد اكثر منه وقح على ما يبدو ، مثقل بالملل والاندهاش الملول ، قائلا : « يا الهى ! لماذا لا تضاجعها وتنتهى ؟ .. » وانتفض مونتيس ، ورفع رأسه قائلا بفزع : « ماذا ؟ ان .. » وتلعثم ، مذهولا ، غير مدرك بعد ، او مترددا فى تصديق ما سمعه بوضوح ، ابى على نفسه الى ان ارتفع صوت موريس ثانية (والآن قد تحرك ، ابتعد عن الحائط ، بنفس عدم الاكتراث ، ملول ، سحب سيجارة اخرى من العلبة ، راح يخبط عليها ، بلل شفتيه ، بدا وكأنه لم يلمح حتى وجود مونتيس او تلعثمه) ، وقال وكأنه يحدث نفسه ، بنفس تلك النبرة غير العابئة ، الملول : « لاشك انها بدينة الموخرة ، انا عن نفسى افضل ... » ، ثم استطرد بلا مقدمات ، بصوت مختلف تماما : « ويحك ! ماالذى دهاك ؟ ما الذى ... » ، وكان مونتيس واقفا يصرخ قائلا : « اخرج ! » ، موريس : « ما الذى .. » ، مونتيس ثانية : « اخرج من هنا ! » ، موريس : « هيا ياصاح ، » ثم : « ويحك ! ، احذر ، اللعنة ! كانت أخر .. ألست معتو .. ياالهى ! اين دفعت بك .. اتعتقد اننى .. » ثم : « هيا ! بلا مزاح انك .. » ، ثم صوت الصراع الصامت ، التنفسان اسرع من قبل ، يدا موريس تلوحان فى الفضاء ، ترتطمان بشىء نحيل ، جاف ، اكثر جفافا واكثر بعدا عن الحياة من العصا ، لكنه شىء لا يقهر ، (لقد مررت بنفس التجربة ذات يوم ، حينما اصطحبت مونتيس معى لأريه بعض الصور الفوتوغرافية ، وتنحيت جانبا عند الباب لكى اتركه يدخل قبلى ، مما ادى الى محاولة ضاحكة من محاولات المجاملات ، محاولة يداى وهما تدفعانه من الكتف للدخول امامى فلاقيت مقاومة ضعيفة ، يصعب التعامل معها ومتصلبة ، فادركت انه لا داعى للمحاولة ودخلت قبله) ، وحاول التشبث به ، مجهدا فى دفع

الأيدى بعيدا عنه ، حاول التخلص من قبضته المحكمة على كتف الروب دى شامبر المحنى ، المتصلب ، بينما راح يرضخ تدريجيا . ويضعف تحت ضغط الدفع الذى لايلين . اشبه ما يكون بالوضع الساخر المهين لطفل يزجون به فى الغرفة المظلمة ، فيلوح بيديه وقدميه فى حركات دفاعية تحت لكمات غاضبة ، ثم

دون ان يدرك جيدا كيف حدث ذلك . لم تعد اليدان تواجهان القفص الصدرى النحيل والضلوع ، وانما لوح الخشب . وفى ثانية اغلق الباب . فراح موريس يخبط عليه ، متوعدا سابا فى ظلام الطرقة . صارخا : « ايها الاحمق ! » وصارخا : « ايها المغفل ! لقد خدعتك . لقد خدعك الاثنان ! نعم : هو وهى . كلاهما . ولقد رأيتهما منذ ساعة تقريبا . كان هنا . كان .. » . واستمر الى أن اتاه صوت من غرفة مجاورة ، محتجا ، فأجابه موريس بسيل من الشتائم ، ثم صاح ثانية : « ايها المخدوع ! » ، ثم قال لى مونتيس انه سمع بعد ذلك صوت باب يغلق بحدة ، ثم لاشىء ، واضاف « الا تلك الريح التى قد نسيتها والتى راحت تهز اشجار الصنار تحت نافذتى وكأنها اشجار البرقوق ويؤرجح النور فى الميدان الخالى . ولا اعرف ما الذى دهانى . ربما لم يكن يعنى الا المزاح . او ربما لاننى لم اتعود على ذلك . لاننى اعرف ان مثل هذه الاشياء بين الرجال ... اعنى : انها نوع من الدعابات التى ...

ـ دعابات .. لا اعتقد ذلك . وما فعله فيما بعد ، هل تسميه دعابة ؟

ـ اعنى : اننى اتساءل ان لم تكن غلطتى . على الاقل جزئيا ، آتدرك : حينما اخرجته بهذه الطريقة ، اثرت غضبه ولاشك . ربما ان كنت .. لكننى كنت فى حالة يرثى لها ، لقد فاض بى الكيل ، ليست اعصابى فحسب : وانما كل شىء . اذكر انى نمت كالقتيل . بل على ما اذكر لم تكن لدى القوة لأبدل ثيابى . وفجاة ، وبلا فاصل ، كان وضح النهار ، كنت احلق ذقنى . وكانت هى هنا ، فى نفس المكان الذى كان هو واقف ...

ـ من « هى » ، روز ؟

فنظر الى بعينين هائمتين ، حائرتين ، قائلا : « روز ؟ لا . تلك الفتاة : سسيل ... »

- ١٠ -

لا ، لم يكن بسبب قصته ، او بسبب عدم ترابط ذاكرته : كل ذلك قد وقع بالفعل على ما اعتقد ، بصورة غير واقعية ، فكان الزمن يتسع ، يتوقف او يمتد تباعا ، ليس بسبب تعبه ، او بسبب الليلة التى امضاها ساهرا (وان كان قد نام طويلا : فقد ادرك ذلك ، ملقيا نظرة سريعة على ساعة معصمه بينما كانت ذقنه غارقة فى صابون الحلاقة ، واعتراه الخجل ، فراح يتهته ثانية . واسرع بتسوية الفراش : كان الوقت قرب الظهر) ، وانما لعدم قدرته الاساسية على ان يتنبه للحياة ، للأشياء ، للاحداث ، لا عن طريق مشاعره ، وقلبه . (وهى عدم قدرة نعالجها عادة بمجهود ذهنى لسد ثغرات الزمن التى افلتت من ادراكنا ، مثل تمارين القواعد اللغوية فى فصول الاطفال التى يجب استبدال النقاط فى جملها بكلمةٍ مناسبة ، بحيث يبدو نفس الحدث ، بعد ملء الفراغات . مطمئنا من الناحية الشكلية لواقع تقليدى ، رأه المرء من قبل ، او لواقع متضخم الابهام ، وفقا لحالة الكسل او لقله الملكة الابتكارية ، او نتيجة للملل الشديد لتلك اللحظة) . بالاضافة الى : هذه الطريقة الدائمة التى يستخدم بها اسماء الاشارة « هو » او « هى » مشيرا الى اى رجل او اى مخلوقة مؤنثة فيما يشبه الخلط الدائم بين الاشخاص . كأن العالم يبدو له عبر حالة من قصر النظر ، ملىء بأطياف ثنائية الارجل غير واضحة المعالم ولا يفرق بينها الا ارتدائها جونلة او بنطلونا (وذلك مثلما يحدث لنا كمصورين فوتوغرافيين بالنسبة للاشكال السوداء الداكنة ، او المتشابهة العادية والتى لها نفس الانحناءات ، ونفس الجمجمة المغطاة بالصوف ، وكأنها مصبوبة فى قالب واحد فى فرن بدرجة عالية ، مصبوبة تلقائيا كمكمل لبعضها بعضا ، او كتناقض ، ملتحمة فى الهواء الذى يحيط بها . فى الضوء الذى يعمى الابصار ، مثلما فى صور او افلام المستكشفين ، والذين لايفرق بينهم سوى الاستعراض الساذج المغرور لاعضائهم التناسلية . المعروضة بلا حياء ، او المشار اليها بلا حياء اكثر ببعض المكملات الرمزية الطقوسية ـ وذلك على الاقل حتى يأتى الارساليون والتجار . ويعمدونها . ويكسونها فى مياه نهر متصنع الحياء سوقى

ببعض الثياب القطنية المدفوعة بالتقسيط بلا تعب ولا توسلات) ، وكأن العالم الخارجي العدوانى الخطير مقسم الى جزئين من القواعد مذكر ومؤنث . يحمل كل واحد منهما ، او يتميز ، بخاصيتين متكاملتين ومتناقضتين لا ينتميان الى ذاتيتهما لنوع ما بقدر انتمائهما الى اسم اشارة .

بل واكثر من ذلك : الجنس البشرى قد تحول (حوله هو ، وقام بتوصيفه ، وتحديده باسره) الى اساطير ، مذكرة ومؤنثة تنقسم طولا اولا : بمعنى الطفولة ، البلوغ ، الشيخوخة (ولعل ذلك يفسر الصور التى التقطها ، مجموعة وجوه البالغين ، الذين لم يمسسهم شيء ، وجوه نضرة ناصعة البياض او يعلوها النمش ، او اولئك السمر ، ممتلىء الشفايف مثل الذين عثر عليهم هنا ، لكنهم عذارى ، طاهرين ، الا من بعض السمات البربرية البدائية - العنف ، القسوة ، الامتلاك - ومن ضمائرهم ، وبالتالى من نزعة الشر) . ثم فى القسم التالى ، فيما يشبه التقسيم الطبقى (القساوسة ، القضاه ، العساكر ، التجار) حتى تمكن من وضع كافة الاحياء فى نوع من العلب ، المعنونة والمرقمة ، مزودة بوظيفة معينة ، بدور معين - بما فى ذلك اللصوص والجلادين - الى ان يكف العالم الجسور المعقد عن الدوران بلا هوادة وبلا ضوضاء ، ينتظم ، وينظم نفسه ليستقر بلا حراك .

وبينما كنت انصت اليه وهو يحكى لى قصته ، كنت اتأمل ذلك الوجه المجعد ، وتلكما العينان التعيستان الحنونتان كالكلب المهزوم ، قائلا فى نفسى : « لابد وان هناك شيئا ما يكرهه هذا الانسان اكثر من اى شيء آخر » ، ثم فكرت قائلا : « ترى ماذا ؟ » ثم اضفت : « لايكره . لا . فهو غير قادر على الكراهية . حتى الشر . لكن هناك ما هو اكثر من الكراهية : الخشية والحيطة . » ثم استطردت : « لكن ، ترى ما هو ذلك الشيء ؟ » ، ثم أضفت : « بل هناك ما هو اكثر من الخشية ، واكثر من الحيطة : انه يموت من الخوف » . لذلك انتابته الشيخوخة قبل الأوان ، فهو فى الخامسة والثلاثين ويبدو فى الخمسين رغم انه على ما يبدو وفقا لما يقوله ، لم يشترك فى الحرب ، ولم يمارس ايه مهنة متعبة او غير صحية ، بل ولم يصب ابدا بمرض خطير ، على الاقل ، من تلك الامراض التى يصاب بها المرء ويشفى منها - او يموت - بواسطه الحقن ، والامصال والمبضع ، ومع ذلك فهو يعيش دائما فى حالة الرعب هذه كشخص لايخشى خطرا ما فى المكان والزمان الذى يمكنه الابتعاد عنه لحظة ، او يمكنه نسيانه ، لكنه خطر ملتصق به ، لا ينفصل عنه ، كالقرحة ، او السرطان ، بحيث ان هذا التسلط يمثل نقيضه ، مثلما تمثل الامانة فكرة متسلطة بالنسبة للصوص ، ومثلما تتسلط فكرة الاحترام بالنسبة للعاهرات ، او فكرة الاحترام عند ذلك الوغد الصغير المسمى موريس . لأنهم فى الواقع يمثلون عكس كل هذه القيم ، مثله (هو ، حاليا وقد بدأ الغضب

يستحوذ عليه . بكل ما به من لطف ، وبراءة مدمرة . وطيبة مدمرة ، وملكة جلب المصائب المدمرة مثلما يجذب الآخرون الكلاب او النقود . فهو يثير حوله الرغبة فى التحدث ، كما يثير البلبلة . والفراغ . والخلط . ليس بسبب طريقة تحركاته لكنه يحرك معه ـ مثلما يفعل الشخص العائم لحظة الغرق بمن يأتى لانقاذه ـ فى ذلك الجو اللزج ، والحكايات المتعذر حلها . وخطبه الملتوية . غير الصريحة) اى انه بالضبط عكس رغبة النظام . والاستقرار . وذلك المفهوم المتسلط لشبان الكشافة والمتفائل للعالم الذى يتمسك به . والذى يحاول الحفاظ عليه بأية وسيلة ، ويعتبره الحقيقة رغم أية براهين واضحة اخرى ...

ومرة ثانية ، انسقت رغما عنى ، كأن ذلك الذى يغرق يسحبنى انا ايضا (رغم اننى لا اتمتع بأى صفة من صفات المنقذ : الا اننى ببساطة كنت فى متناول يده فتعلق بى) ، فوجدت نفسى حيال ذلك الزمن الممتد كجدار رمادى بلا بداية ولا نهاية ، جدار منهك ، تعلوه تلك الاعلانات الممزقة المتطايرة بفعل الريح . باهته الألوان ، واحيانا بعضها مازال فاقعا ، صارخا . انمحت الكتابة من عليها . واجزاء النصوص التى تعلوها بلا بداية ولانهاية . بلا اى تتابع . مرصوصة . تتناقض ، تلوح بين تمزيقتين مثل وجود شخصياتها فى الاعلانات وقد بترت منها عين ، او خد ، او جانب باسره (واحيانا لايتبقى منها سوى خد . اوعين تنظر اليك ، تفحصك ـ بغموض فى اعماق الزمان الغامض . بين قصاصتين من الورق وكأنهما ضلفتا باب مفتوح) : وكذلك بدا لى . بملامحه المشدودة . واجفانه المحمرة ، ورغوة صابون الحلاقة التى لم يمسحها جيدا مازالت عالقة بطرف اذنيه ، وشكله الضائع ، وقد استغرق حاليا فى صراع غير متكافىء بين اكمام الجاكته التى كان يحاول ارتدائها ، وهى (سسيل . تلك الفتاة التى لم يرها سوى مرتين : المرة الاولى كضيفة فى ذلك العشاء الرسمى الجنائزى فى غرفة الطعام الرسمية الجنائزية فى ذلك المنزل ذى مجموعات الاسلحة المتربة . والمرة الثانية عندما جاءت فى نفس غرفة الفندق تنظر اليه . تتأمله كحيوان غريب ، حيوان فى قفص ، كأنها تريد ان تقنع نفسها بانها لم تكن تحلم فى المرة الاولى . والآن كانت هنا ثانية ، تنظر اليه وهو يكافح . ـ بذلك الوجه الجامد الرقيق تحت شوشة شعرها الاحمر ، الكثيف ، المقصوص مثل شعر الشبان ، بجبهة عنيدة كالشبان ، بينما يعلو كل ملامحها شىء عنيف ، ارادى ، اندفاعى ، شىء اجدر ما يكون بالشاب المراهق وليس بفتاة ـ ولم يكن وجهها أنذاك يعلوه ذلك التعبير الساذج الغريب ، وانما نوع من الاضطراب ، وكأنها فقدت ثقتها لأول مرة . ثم . تدريجيا ، وبينما هو يتخبط مع جاكتته بشكل يثير الضحك . تحول تعبير عدم ثقتها والاضطراب على وجهها الى نوع من الغضب البارد ، المتواصل) فقالت اخيرا :

« أهى لعبة فى سيرك ؟ »

ثم ، وبينما كان لايزال يتخبط مع السكون العدائى للجاكت ، مع ذلك الرفض ، او العداء الغريب ـ نوع من الانتقام ، او الأخذ بالثار ـ من ناحية قطعة نسيج ، وهى (ايا كانت الاسباب التى قادتها الى هنا ، مدفوعة للمرة الثانية للسير فى طرقات منحدرة فى الحى القديم من المدينة ، بين الاكواخ ، والذباب وروائح شواء السردين التى تملأ الجو ، وعلى الارصفة ، بين نسوة جلسن القرفصاء فى ارديتهن ، يقمن بالتهوية لتقوية نار الفحم بينما ينادين بعضهن بعضا ، ثم (مدفوعة) تدخل فى ذلك الفندق ، تتبعها النظرات الصامتة ، المليئة باللوم والمرتابة لعجائز لا يتحركن ، يلعبن الكوتشينة باوراق بالية قذرة ، ثم لتجد نفسها وجها لوجه مع شخص غير قادر حتى على ارتداء كم جاكتته) فلم تتمالك قائلة : « انك تفتعل ذلك ، آليس كذلك ؟ » ، ثم يليها مباشرة كأنها تنتقل الى موضوع آخر ، او كأنها كفت عن متابعه تلك المعركة الساخرة ، فقالت بصوت واضح محدد ، غاضب : « كما افتعلت نسيان تلك الدعوة آليس كذلك ؟ »

فقال وقد نجح اخيرا فتحجر مكانه وتوقف ذراعه فى منتصف الكم : « تلك ... »

ـ الدعوة ؟ نعم . دعوة العشاء . الا لو تخيلت الى ذلك ، ولم احضر ، ولم اسلمها لك بنفسى ... » ثم تراخى الصوت ، توقف ، كأنه اختنق من شدة عنفه ، او ربما حياء ، او قد اعتلاها كبرياء ما فحاولت السيطرة على نفسها ، فاختارت صوتا خفيفا ، مبتهجا ، بعيدا عن السخرية ، لتقول : « اود معرفة ما الذى تفعله بالضبط ؟ »

هو ـ « ما الذى ـ ماذا تعنين .. ؟ » .

هى ـ « ما كل هذه التمثيلية ، لماذا ؟ »

هو ـ « تمثيلية ؟ »

هى ـ « التى تقوم بها ، نعم : ان تهزأ من نفسك عمدا ، ان ترتدى ثياب كالمهرجين ، وان تسكن فى فندق مريب .. »

هو ـ « مريب ؟ لكنه ليس .. أؤكد ... »

هى ـ « بل قبيح ، مقرف . وعندما تعلم ان اى شخص الآن قد يقرضك كل ما ...

وفى هذه اللحظة تبادر من الردهة صوت المكنسة والسطل . ورآها مونتيس وهى تلقى بنظرة خاطفة بينما استمر الصوت ، متخذا تلك النبرة فجأة ، النبرة المميزة ، العميقة ، وكأنها تنفصل عنها ، على حد قوله فيما بعد . وكأنها هى وصوتها يمثلان شخصان ، يعيش كل منها مستقلا عن الآخر ، بشكل ذاتي .

الصوت ينطلق مندفعا ، مرتبا الكلمات فى جمل وفقا لأجرومية ، ونظام معين - المهم هو عدم توقف الصوت ، الضوضاء - بما أنه لا من كانت تتحدث ولا من كانت توجه له الحديث لم يكونا يهتمان ، بل كان يرقبان صوت السطل على بعد عدة امتار منهما ، خلف مجرد حائل من الخشب ، بينما كان هو يتساءل بفضل ايه ظاهرة توارد خواطر ، او تأثير متبادل ، تعرف النساء ، او يشعرن بشيء ما ، حتى دون الحاجة الى استعلامات معينة ، وراح يفكر قائلا : « ربما قد رأته تحت ، او اعترضت طريقه ، او ربما صاحبة الفندق قد ... لكن ذلك ليس بالاهمية لأنهن ... » . ثم كف حتى عن التفكير ، وعن التساؤل ، وراح يغمض عينيه ويفتحهما فى تغبر الضوء المعتم ، مترنحا من التعب . ولم تعد الكلمات التى كانت تقولها الفتاة الآن تصل اليه ، وعلى العكس من ذلك ، فإن الرؤية كانت واضحة ، منفصلة ، لتلك الذبابة الواقفة على الجبهة الملساء ، بغمدها المصدف ، ونحول جذعها ، ورأسها مثلثة الشكل كالدبوس ، ولونها الداكن المائل الى الاحمرار ، ظلت فترة بلا حراك ، ثم بدأت تتقدم فى السير فجأة ، بخطى متقطعة ، وقفات عبثية وتغيير عبثى فى الاتجاه ، ثم تلوح ، حركة ملولة ليد لم يتبينها جيدا ، وعادت الجبهة خالية ، لحظة ، ثم ظهرت تلك البقعة السوداء ثانية ، دون حتى ان يلمح طيرانها ، لاحت فجأة ، كشيء ثابت او كمثل هذه الحيوانات ، او تلك الاشياء التى يخفيها السحرة بحركة يد ثم يعيدونها ، ثم راحت الهالة تزداد ضيقا ، تغلق ، الى ان كف عن رؤية اى شيء رغم انه ظل واقفا ، منهك ومتنبه ، كأنه وسط نوع غريب من الفراغ ، او من السراب حيث لا تتزاحم فيه ذكريات الأمسية او الليلة الماضية وانما قرقرة غير واضحة ، شيء اشبه ما يكون بخلية نمل متناثرة بضربة قدم ، أو مثل علبه الالة باندورة وقد انقلبت واندلقت منها ملايين المآس المتناثرة فى هرجلة غريبة وتناثرت معها احداث الاغتصاب . والقتل . والدموع الساخرة ، ثم يلوح الزمن من جديد ، يتجسد . هو والواقع . وذلك الجدار الرمادى ، والريح الصفراء التى تهز كل شيء ، وتخرج قصاصات الاعلانات من العدم ، وقصاصات الجمل ، والآن اصبح هو شديد الاحمرار وكاد يصرخ : « لست قديسا فما معنى ذلك ، لماذا انت ايضا » (وبالفعل كانت لثانى مرة خلال ثمانية واربعين ساعة ، تقذف له نفس الكلمات تقريبا بنفس لهجة الغضب الجامح اليائس - مع الفارق ان الفتاة الواقعة الآن تصغر الاخرى بحوالى خمسه عشر عاما ، وهى ليست خمسة عشر عاما تقاس بدورات النجوم وابراجها ، لكنها كانت متماسكة الكيان ، متعاليه ، لم يمسها انسان ، لم تكن عذراء فحسب وانما عذراء حتى من مهاترات الهزائم ، كانت تجهل حتى فكرة الهزيمة ، وتجهل ان الحياة ليست فى الواقع الا سلسلة من الهزائم ابتداء من انتصارات الشباب العابرة حتى الضعف النهائى . حتى المأساة النهائية التامة ، لذلك تحاول كل الديانات ويحاول كل رجال

الدين تحويل الآلام الى حسنات والبعض الأخير الى خلاص أو على الاقل الى نتائج لا قيمة لها) « لا اتصور نفسى اى شىء وفى النهاية انكم جميعا ... »

وفجأة تغير صوته ، وان كان مازال محتقنا ، بل قرمزيا ، فعاود قائلا : « انى اعتذر .. لقد امضيت ليله مضنية ، انى متعب قليلا ، من الهواء .. » . اما هى فقد اصابها الذعر الآن ، اختنقت بدورها من ذلك العنف ، من هذا الانفجار الفجائى ، ثم عادت الى تلك المنظرة غير المصدقة ، متقطعة الانفاس ، الى أن نجحت فى السيطرة على نفسها ، وعندئذ تبين مونتيس الغضب وهو يرتسم فى عينيها ، يرتد متصاعدا باقصى سرعة ...

فقلت له « لكنها لم تبدأ فى تأنيبك هكذا ، بلا مقدمات ، على ما اعتقد ، انها لم تدخل الغرفة وتغلق الباب خلفها ، وترتكن اليه ، وتنساب هكذا فى ثالث مرة تراك فيها ، لتتشاجر معك على هذا النحو ... »

فنظر الىَّ ، بشكله الناعم المندهش ، ثم لاشك ان كتلة الزمن قد سقطت عليه ، استحوذت عليه (وفى هذه اللحظة اعطانى احساس الشخص الغارق الواقف على الاربع فى دوامة المد المزبدة ، ومحاولا الوقوف ، محاولا الاعتدال ، لكن هدير الزبد ينهال عليه بدواماته ويغرقه الجبل السائل) : فقال « اعنى .. اعنى انها قد فسخت خطبتها ، انت تعلم ان ...

فقلت : « فسخت خطبتها .. فهمت فحضرت لتحيطك علما ؟ لاشك انها كانت تدور على اصدقائها ومعارفها لتفعل نفس الشىء ...

- تيحطنى علما ؟ لكن لا يوجد ... لايرسلون .. »

ثم ادرك ، وبدأت الابتسامة ترتسم على محياه ساخرا من نفسه ، الا ان وجهه تجهم ، تجعد ، وكأنه مرة ثانية يحاول حل نفس المشكلة ، نفس الطلسم ، فاضطرب ، انزعج ، ناظرا الىَّ مثلما كان ينظر اليها بلا شك . بينما كان ذلك الحوار ينساب ، او ذلك النوع من المبارزة - ان امكن اطلاق ذلك الاسم فى هجوم لا يكف الخصم خلاله عن تكييل الضربات بينما الطرف الآخر يكتفى بتحاشى الضربات بقدر الامكان - ولاشك اننى اعتقد انه رغم جرأته ، ورغم حالة الانفعال هذه - او الاحباط - التى كانت تعتريها ، فقد بقى لها شىء من السيطرة على نفسها (او ربما بحكم العادة ، او التلقائية ، او ردود الفعل اللاارادية لتجد ، او لتعثر - على الاقل خلال الاجابات الاولى - على تلك النبرة ، المتباعدة ، شديدة الوقاحة ، شديدة التفاهة (وكأن الامر يتعلق بحدث ، او بخبر بلا اهمية ، خبر عابر ، ضمن بقية الاخبار ، عرضى ، يقال لشخص بلا اهمية) ..

- « فسخت خطوبتى .. انا

- فسخر ..

- نعم : فسخت خطوبتى . اختى ..

- خط ..

- نعم ، ماذا ! فسخت ، انتهت : انتهت ، ماذا . الا تفهم ؟

- بلى ، بالطبع ، لكن ..

- بالطبع ، ما هى .

- اعنى ..

تعنى قول : بكل تأكيد . . »

ثم ضحك . لكن ، فيما بعد ، كانت تلك الاصداء تبدو نشاذا . غريبة عكس الضحك ، حيث خيل إليه انه مازال يسمعها بعد ان رحلت ، وطوال ذلك اليوم الذى حاول خلاله ان يتفادى روز فكان بدوره يتصنت ، يتحين اللحظة التى يستطيع فيها الخروج من غرفته لينزل السلم بسرعة وينسل خارج الفندق دون ان تراه ، ليذهب لتناول افطاره المكون من عدة بسكويتات يأكلها على الاريكة فى الميدان - وربما اختار تلقائيا تلك الاريكة التى جلس عليها ذلك المساء محاولا استيعاب اللكمات التى اخذها - وظل يمضغ آليا ، ثابت النظرات ، يحملق فى الفضاء ، وربما كان يتابع تحركات الحمام الذى يترقب الفتات دون ان يدرى - بل وربما كان يلقى له بعض الفتات آليا - بينما الريح الخالدة تهز اشجار الصنار من فوقه بحفيف مستمر ، قوى ، مهيب ، بينما الجذوع المهيبة البيضاء تتأرجح ببطء بين بريق الاوراق اللامعة الذى لا يكف ، فامسك بنصف بسكويته فى يده ، وتوقف نصفها الآخر فى حلقه وهو يجاهد لا بتلاع تلك العجينة الجافة اللزجة ، مفكرا : « ان استطعت ان اشرب » ، ثم فكر بلا مقدمات ، او ربما فى نفس الوقت ، بنفس الاحساس اللزج الخانق : » آه ان استطعت الابتعاد ، الافلات من هنا » .. ثم فكر : « الهدوء فحسب . الهدوء . ذلك كل ما ارجوه . لكن ، هل من الممكن القيام بحركة واحدة دون ان يعم الشر .. دون ان يتعكر كل شىء ، مثل قاع البحر ، دون ان ينهار الهواء الشفاف ، والسماء والبيوت ، والاشجار التى تحتوى عليها ، دون ان يتبخر كل شىء وينهار بصوت الزجاج الذى ينكسر ، كأن المرء يعيش فى عالم ليس مكونا من الخشب المتين ، والاحجار المتينة ، والاوراق ، والريح التى لايمكن لمسها ، ولكن كأننا نعيش فى احدى هذه الحوانيت المليئة بالزجاج حيث اقل لفحة هواء ، اقل حركة ، اقل عطسة .. يا الهى !) وقد قال لى : رغم انه يعلم ان كل ذلك لا جدوى منه ، وانه كان من العبث محاولة الافلات من هذا التشابك الذى تورط فيه مثلما لايستطيع المرء الافلات من المرض او من الموت ، بل ولا حتى الامل فى الحصول على تأجيلها بعض الشىء : لانه لم يعد يشك الآن فى أنه حتى اذا لم يتحرك ، ما يجب ان يحدث سيحدث ، وانه حتى ان ظل على الاريكة لاحراك فلن يغير شىء مما يجب ان يحدث (كما انه لم يكن ليغير شيئا

ويعجل بشيء او يؤخره بانفعاله او بمسابقة الاحداث او بالهروب منها) ، اى انه لم يكن يبحث حتى عن مهلة (فقد قال لى : « لا توجد مهلة فى الامر الواقع ، اليس كذلك ؟ ») . كل ما كان فى وسعه ان يفعله هو ان يظل جالسا على الاريكة وينتظر ، مدركا انه سواء جلس هنا او هناك فان ما يجب ان يحدث سيحدث . لذلك لم ينتفض ، او حتى لم يلتفت برأسه (فقد قالى لى : « ربما كانت الساعة الرابعة او الخامسة بعد الظهر : كل ما اعرفه ان الاطفال بدأت تلعب فى الميدان منذ لحظة ، يلعبون ويمرحون خلف الحمام ليدفعونه الى التحليق ، بينما وقفت خادماتهم - او ربما امهاتهم يصرخن من وقت لأخر ... ») ، فاكتفى بالنظر الى تلك اليد دون ان يفهم ما الذى كانت تضعه تحت نظره : سطران مكتوبان بخط اليد على عجل ، بالقلم الرصاص ، على ورقة منزوعة من مفكرة مازالت رائحة الجلد الثمين تنبعث منها ، رائحة حادة ، ثابتة ، عنيدة . « لكن لم يكن لهما اى معنى مثل ذلك الحمام بعينيه المستديرة ، او مثل تلك السماء الملبدة ، ، او مثل بيوت وشجر من زجاج على وشك ان ينكسر : مجرد بعض كلمات متراصة لم اتمكن من تبين معناها مثلما لم اتمكن من فك رموز كل رسم من هذه الرسوم الرمادية الصغيرة على حدة ، فقد كانت اسطر كأسنان المنشار ، لم اتبين لها ايه فكرة او اى معنى ، ليست اكثر من .. » ثم حكى لى : بحركة تلقائية فمد يده (وكان مجرد المسك بقطعة الورق ، وتقريبها من عينيه ، وتفحصها عن قريب ، كان كفيلا بان يجعله يجد الحل) واغلقها فى الفراغ ، وكأن صفحة المفكرة قد تبخرت ، قد انسحبت بسرعة من محيط رؤيته ، بحيث ظل واقفا . ينظر بغباء ، فى المكان الذى كان المستطيل الابيض يحتله منذ لحظات ، بينما ظلت اصابعه الثلاثه الابهام والسبابه والاوسط ، متلاصقة على لاشيء ، امام خلفية تتحرك فيها الاشكال الرمادية غير الواضحة للحمام وظل فى ذلك الوضع الى ان سمع الصوت الساخر قائلا : « يا الهى ! لكنه اعترف بالحب ! »

لكن حتى بعد ذلك لم يلتفت برأسه . والآن قد تحولت البقع غير الواضحة الى طيور ، بصدرها الاخضر والبنفسجى ، واقدامها المرجانية اللون ورءوسها الصغيرة ذات العيون المستدمرة التى تسبق خطواتها . وعاد الصوت يقول : « كنت واثقا اننى سأجدك هنا ، بل لقد تراهنت على ذلك . لقد سألتنى ان لم اكن اعلم اين يمكنها ان تجدك . لكننى اعرف معنى الرزانة ، اليس كذلك ؟ لم يكن يحق لى ان اخبرها انها تسعين فى المائة ستجدك على احدى الارائك وسط المتسكعين والخادمات . فكتبت تلك الورقة ووضعتها تحت باب غرفتك . فتصورت انك ستفرح بمعرفه ما كانت تريده منك فأسرعت ... لا ، لم انزل لأرى ان كان مفتاحك على لوحة المفاتيح ، فلا يحتاج المرء الى ذكاء ليخمن انك اليوم قد اخذته معك ، لكننى وجدت قطعة سلك ، ولم اجد صعوبة فى ... »

مونتيس : « حسنا ، ما الذى تريده ؟ »

موريس : « ليس أنا : انها هى » .

مونتيس : « هى ؟ »

وراح موريس يقرأ : « لقد تصرفت كالعبيطة هذا الصباح . ارجو ان تعذرنى . يجب ان اراك . س . » ثم تغير الصوت ، بانتصار ، بفظاظة ، وهو يقول : « حرف س : كازين ، كريستين ، كاميل ، شارلوت ... » فقال مونتيس : « سسيل . اعتقد انك تعرف ذلك الاسم أيضا (ولم يكلف نفسه عناء استدارة رأسه ، وظل يصوب نظره امامه على الخلفية الخضراء المنقطة بالاوراق واطياف الاطفال ودفعات الحمام الفزع ، المتطاير بصخب ، مثل طفرة من الفقاعات ، وسط الضربات المتتالية لاجنحتها) .

« بأى حق ؟ » لكن الصوت لم يكمل ، وظل الاثنان صامتين ، بينما راح موريس بلا شك يرقبه بطرف عينه ، وتلك النزعة العصبية تشد طرف شفتيه ، بينما الحمام يحلق فى شكل دائرى ، يرتفع فوق شجر الصنار ، ثم يغير اتجاهه فى الضوء بدوران سريع ، ثم يحط وسط الممشى وسط ضوضاء ريشه ، الى ان قرر مونتيس التحدث ثانية ، فقال : « ما الذى تريده ؟ »

فقال موريس عندئذ : « فى تلك الليلة قد طردتنى خارج غرفتك .. » ثم انتظر برهة . لكن شىء لم يحدث . وعندئذ اضاف : « حسنا . حسنا . كما تريد ... » وسكت مونتيس .

« حسنا . حسنا . لا وقت لى لأقوم بدور العبيط . ها هى : انك فى ورطة ، اليس كذلك ؟ انك تريد فصل ذلك الشخص الذى كان يعمل مسجلا ايام والدك وعلى ما يبدو انه لا يقرك تماما ، اليس كذلك ؟ »

وظل مونتيس صامتا ، ولم يكلف نفسه عناء السؤال ، بل لم يفكر حتى فى ان يسأل : « وكيف عرفت ذلك ايضا ؟ » واكتفى بالانتظار ، وفجأة انتفض ، وكاد يلتفت لينظر الى محدثه ، فلم يكن ما سمعة الآن ما كان يتوقع سماعة ، لكن الصوت تبادر كالرجاء ، كالعتاب ، كالنواح ، قائلا : « الم اقل لك اننى صديقك . لقد قلت لك ذلك . لكنك رفضت تصديقى . واعتبرتنى ، او عاملتنى كأنى ... كأننى .. » . ثم خيم الصمت من جديد (الا ان صوت الريح البعيد وهو يهز بلا هوادة اشجار الصنار العاليه ، ونداءات الخادمات ، وصراخ الاطفال كان يأتيه عن بعد ، وكأنه عبر ذلك الحائل الزجاجى الرفيع حيث تنعكس رؤية العالم الواهنة القوية) وبعد فترة عاد صوت موريس ، لكنه فى هذه المرة كان مثلما سمعه من قبل ، عنيف ، سريع : « حسنا . حسنا . هل تحيل وقع ذلك اذا علم انك تدارى على سرقة قام بها غجرى وعاهرة ؟ »

لكن حتى فى هذه اللحظة . لم يرمش بعينيه . لم يتحرك ، وقد قال لى فيما بعد

، لم يكن من باب المداراة او الحيطة ، أو ليحدد لنفسه موقف ، لكن الموقف كان بالنسبة له وكأن الاحداث تتم خارجا عنهما الى حد ما ، فى نفس الوقت مع استمرار ذلك الشريط السينمائى لتحليق الحمام المفزوع ، وصراخ الاطفال غير المميز والريح الغاضب ، الرتيب بلا هدف ، هناك ، عاليا وسط الاوراق الثقيلة اللامعة ، بحيث انه عندما انتفض ، خارجا من غفلته ، من سلبيته ، قال بصوت محتج ـ بل واكثر من محتج ، بل واكثر من مذعور ـ : « لكن ذلك عبط ، لا معقول : انك تعلم اننى مفلس تماما ! » (لكنه لم يعد يسمع ، بل ولا ينصت الى اجابة موريس وهو يقول : « لكنك ربما .. تعرف : سأكتفى بتو .. ») فلقد صعق من غباء الاقتراح اكثر مما صعق من خزاه . ثم اضاف لى : « ربما لو كنا فى وقت آخر لوافقت ، او ناقشت ، او على الاقل لحاولت التحايل ، لكن الموقف كان من العبط : اننى .. او انها .. فقلت : « اغرب عن وجهى ! » . فوقف الآن ، اكثر ضيقا منه متوعدا وان كان قد حاول ان يتعاظم وهو يلوح بورقة المفكرة ، قائلا : « ربما لو علم والدها ... » ، فقلت ثانية : « اغرب عن وجهى ! » ، فقال ايضا : « انك على خطأ ، انصحك .. » ، فصرخت دون ان اهتم بالناس الذين يلتفتون نحونا : « اغرب عن وجهى فورا ، اتسمعنى ؟ اغرب عن وجهى فورا ... »

- ١١ -

حينما دخل ، او بتعبير أدق حينما اقتحم غرفة مونتيس (وقد قال لى مونتيس فيما بعد انه دخل دون ان يعلن عن نفسه ، دون ان يخبط على الباب : فلقد انفتح الباب فجأة . بعنف ، وكأنه دفع بضربة قدم . وانه لم يكلف نفسه حتى عناء لف الأكرة ، بحيث انه اذا كان مغلقا بالمفتاح من الداخل لتطايرت الطبلة القديمة بالمفتاح حتى منتصف الغرفة ، ولارتطمت ضلفة الباب بحدة على الحائط الذى تساقط منه جزء من الجبس فوق البلاط حيث تفتت بصوت خفيف ، لا معنى له ، كالانقاض ، او كالعظام الجافة التى تتفتت ـ وذلك بعد ان خيم الصمت . ووقف موريس فى منتصف الغرفة ، دون ان يتذكر مونتيس انه رآه يسير حتى ذلك المكان ، بل ولم يتبين انه سمعه يلقى بتحية المساء بشكل عابر : لم يذكر الا تعبيره السيىء ، الكئيب ، يتأمل مونتيس وهو فى مستوى منخفض عنه ـ لعلها كانت حوالى العاشرة مساء ـ فوق ذلك الفراش حيث وجدته ذات يوم حينما كان مريضا : يتدلى شعره الطويل على جانبى جبهته ، مرتديا جلابية كالتى لم يعد يرتديها الا طلبة المدارس الداخلية فى الريف ، مقفلة الازرار حتى الرقبة ، يحد ياقتها والاساور شريط احمر ، ينظر اليه هو ايضا ، بهيئة مذعورة ، لكنها هادئة ، ممسكا بين يديه الممددتين على البطانية بالكتيب الذى كان يقرؤه فى اللحظة السابقة) ، ومن الواضح جليا انه كان قد احتسى الخمر . وقد قال لى مونتيس فيما بعد « لم يكن ثملا ، لكن رأسه (الحائر ، العدوانى الى حد ما ، الفاقد العقل ايضا) كان اشبه ما يكون بشخص قد تعدى عياره فى الشرب . ودون مراعاة انه ولاشك لم يتناول طعامه ، اكتفى بملىء معدته بخمسة او ستة كئوس من الخمر » ، (لعله لم يرتكن بكوعه فى واحد من تلك البارات التى اعتاد التردد عليها ، حيث كان يجد بعض امثاله من ذوى الاناقة الخائبة ، بهيئتهم الوقحة ، العناف والبؤساء ، لكنه ذهب الى حانة متواضعة ، حيث كان واثقا الا يلتقى باحد من معارفه ، فوقف بوجهه المثلث النحيل القاسى ، شاحب اللون ، اشبه ما يكون بالاموات وسط اضاءة النيون ، يبتلع وحيدا بنفس ذلك التعبير العنيد ، الشرس والمثير للشفقة ، محتوى الكأس الذى لم يكن حتى يكلف نفسه بأن يطلب من

الجرسون ان يملأه . وانما كان يكتفى بالاشارة بسبابته . او بمجرد نظرة . الى ان القى بورقة مالية فوق حافة البار وخرج دون ان ينتظر الباقى . دافعا الباب بقدمه ، متجها مباشرة الى الفندق . وكأن نفس ضربة القدم قد فتحت البابين تباعا ، او كأن الدفعة التى اتجه بها خارجا من الحانة قد اوصلته مباشرة الى الغرفة التى كان يقف بها حاليا يبدو عليه الاضطراب خلف ذلك القناع الكئيب ، وكأنه لم يعد يتذكر ما الذى أتى به الى هنا ، وقد فك زرار ياقته ، واوسع رباط عنقه . بينما راحت تفوح منه تدريجيا رائحة خمر « البرنو » العنيفة) .

ولقد قال لى مونتيس انهما قد ظلا هكذا لمدة حوالى خمس دقائق يتبادلان النظرات ، دون ان يتفوه احدهما بكلمة ، وحتى حينما اقترب موريس من الفراش ، دون ان ينطق بكلمة ، واخذ منه الكتيب . واغلقه . وراح يقرأ عنوانه بشىء من الذهول ، من الفضيحة ، من الاهانة المقبضة (ولعلها كانت واحدة من تلك المجلات التى كنت قد رأيتها . مرصوصة بعناية فوق الكومودينو . مرجع من مراجع فن التصوير ، او شىء ما اشبه بكراسات الدراسات الخاصة بالبحر الابيض المتوسط ، او ربما نشرة الجمعية الزراعية . العلمية والادبية - فلم اعرف له اهتمامات بقراءة موضوعات اخرى) يلقين او يرمين بحركه ليست مدفوعة بالفظاظة ، او التحدى ، او الوحشية الظاهرية . لكن نفس ذلك العنف الواهن شكلا وبلا سبب الذى قذف به هنا . ثم تركه ، مضطربا وغير محددا . ثم يجعله يدور حول نفسه حاليا . ثم يلف . يسير حتى النافذة التى راح يرفع الستارة عنها ، وعندئذ فحسب قرر التحدث (مونتيس كان يراه من ظهره فقط ولم يستطع تبين تعبير وجهه ، مستمعا الى صوته فحسب ، اصم ، عنيف ، خجول) وهو يقول : « سبق ان رأيت عاهرات يقمن بتفتيش جيوبك ! لست انصح من غيرى وقد خدعتنى احداهن . لكن ان تستغفلنى واحدة منهن .. من ... »

— ١٢ —

كانت إيلين هذه ، كبرى الشقيقتين (اعرف : ان البعض قد قال توا ان كل ذلك لم يكن الا حكاية من حكايات النساء ، معركة من تلك المعارك الوحشية الضاربة لثلاث نساء ادى العناد البارد والتصميم الى أن يفقدن صوابهن ، وذلك دون احتساب تلك الحاسة السادسة التى يضفيها عليهن رعب الشعوذة الرجالى ، وكأنهن لكى يتمكن من الانجاب أو من اثارة الشر يكفيهن ان يتواجدن دون حتى تكبر عناء التصرف او التحرك : يكفى ان يتواجدن ، فى صبر وتأهب ، فى ذلك الوضع الخالد لأم الدنيا العريقة الضخمة ، العاهرة الخالدة ـ ديميتر او دليلة ـ وقد فتحت ذلك الجوف ، ذلك الفخ ، او الفوهة النهمة المظلمة حيث يفرق قطيع الخراف ويغنى جيلا بعد جيل . لكن ، ربما كان ذلك شديد البساطة ، او شديد السهولة) ، إيلين هذه ، إذن ، كنت احاول ان اتخيلها ، واقفه بلا حراك فى سمك الزمان (وهو ليس نحيلا ، خيطى الشكل ، مثل تلك الحبال المجدولة التى ليستخدمها حاملى الرسائل من الهنود البدائيين ، مفهوم لزمن احادى الأبعاد تتراص عليه الأحداث الاساسية ، الماضى والحاضر والمستقبل ، فى تتابع بلا تزاحم ، بهدوء ، تباعا : لكن على العكس (الزمن) اشبه ما يكون بحمم سميكة حيث تعد اللحظة فيها كضربة بلطة فى الأرض الراكنة ، كاشفة عن عجاج عديد من الديدان) ، كنت أراها اذن ، إيلين ، تقف وهى تخطو فى ظل الردهة ، وقد توقفت حركتها ، اشبه ما تكون بأحدى شخصيات شكسبير او اشبه ما تكون باحدى شخصيات التراجيديا اليونانية ، غبية عمياء ، بوجهها السمح ، الدقيق ، الهادىء وغير المضطرب (هى التى كان بوسعها ان تكتشف رجلا عاريا فى الغرفة المجاورة لغرفة اطفالها ، فى منتصف الليل ، بهدوء ليس ظاهريا فحسب ولكن بلا انفعال ايضا ، وتبدأ فى الحوار معه ، وهى نفسها شبه عارية لا تمسك الا بذلك السيخ الذى تقلب به الفحم ، غير مدركة للسخف ، او السخرية او لتناقض الموقف ، ولا لما يمكن ان تتعرض له من اخطار ، او موقف مشين او

فاضح) أو أشبه ما تكون بتلك التماثيل ذات العيون الخالية من الحدقة ، ومن الرؤية هادئة تماما ، تبدو ظاهريا خالية من اى شعور من اى انفعال ، بل وحتى من اى اهتمام بينما راحت ترقب والدها وموريس عبر زجاج باب مكتب ابيها : وعلى الجدران ، على صباغة النسيج الحمراء التى اكلتها العتة ، مجموعات الاسلحة الصدأة الثابتة ، والبراويز المذهبة اللامعة فى العتمة ، وشخوصها الثقيلة ، النهمة المبطرخة ، يحسدها من اسفل آخر سلالتها ، محتقن الوجه ومبطرخ فى زيه الذى لا يتمشى مع العصر لفلاح انجليزى - حلة تبدو وكأنها غلطة من غلطات مسئول لوازم الديكور والذى كان الافضل له ان يكسيه بصدرية من نسيج نانكين ، ورد نجوت وسوالف من عصر لوى فيليب - ، مربع ، الشكل جالس فى احد مقاعد المكتب المتحركة والمشتراه على ما يبدو من مخازن المعدات الأمريكية للحرب قبل الأخيرة ، وامامه ذلك الشاب الذى حددت موقعه من اول نظره - رغم او بفضل هيئته الواثقة ، واناقته المختارة بعناية ، وحركاته المحسوبة - حددته فى الفئة الدنيا المجهولة للعاملين ، لسماسرة النبيذ او المندوبين ، الذين اعتادت رؤيتهم هكذا ، وهى تعبر الردهة ، جالسين بحرص على حافة المعقد المكسى بالقطيفة ، واضعا شنطة من الجلد على ساقيه ، فى مواجهة الرجل البدين مقطب الوجه ، والذى كان حاليا ، محتقن الوجه ، ويحاول جاهدا ان يتمالك ويترك الفرصة لزائره لكى يتحدث (لكن هى ، إيلين ، لم تكن تتمكن من سماع ما الذى يقوله ، فلم يكن اى صوت يصلها عبر الباب ، وبذلك كان المنظر امامها يتميز بشىء خارج عن المألوف ، مقلق وعبثى ، مثلما يحدث عندما ينقطع الصوت عن شريط سينمائى ويجعل الشخصيات تستمر فى الحركة وفى الحياة ، افواه تفتح وتغلق ولا يخرج منها سوى الصمت بينما تعبير الوجوه يتغير ، يتبدل ، يرتخى ، يستنير او يتعكر تباعا بلا انفصام وكأنهم تحت تأثير مخدر او منهك ، كأن الشفاة فى تحركاتها تخرج من الانفاس ، مع الهواء غير المرئى ، شىء ما اكبر من الكلمات ، واصلب من المادة : الكلمات) ، راحت اذن ترقبهما ، الرجل البدين كان يكتفى بتفحص وجه موريس بعينيه الهائجة ، المرتابة اللئيمة ، الغارقة فى الدهون ، وقد تراجع حاليا فى مقعده (على عكس السماسرة المعتادين الذين يجلسون على حافة المقعد بحياء) ، يمروح بعدم اكتراث بقطعة من الورق مستطيلة الشكل ، ثم فجأة ، تختفى عنه البلادة وعدم الأكتراث ، تقدم بجسده الى الأمام ، بعد ان كان خابيا ، بينما راح يضع الورقة الصغيرة تحت أنف الرجل البدين الذى قفز ، اعتدل فى جلسته وقد تصلب عوده ، باعدا رأسه الى الوراء كرد فعل للاحتجاج ولتصحيح مدى رؤيته ، ثم وقبل حتى ان يتمكن من القراءة - او مجرد ان يتعرف على الخط - وان تصل اليد

المرفوعة الى الورقة ، عاد موريس الى الوراء وراح يمروح بها ، وقد غاص فى قعر مقعده فى جلسة اكثر عدم اكتراث وغير عابثة عن ذى قبل بينما ظل الرجل البدين ويده ممدودة فى الهواء ، وقد اصبح وجهه جاليا بلون الجمبرى المطهو (لكنه مازال بتلكما العينين الصغيرتين الشبيهتين برأس الدبوس ، براقتين ، جامدتين ، لئيمتين ، غاضبتين ، بحيث لم ينهض فى قفزة واحدة لكنه نهض بهدوء ، وظل فترة واقفا ، يتأمل زائره وقد اصبح الآن تحت مستوى نظره ، ثم اتجه الى الباب ، وفتحه) ، وعندئذ الأصوات التى لم تكن كفت عن التواجد (اصبحت الأن بالنسبه لأيلين اصوات راعدة - وان لم يصرخ احدهما - مثلما يحدث تماما عند رفع اليدين بعد الضغط بهما فترة طويلة على الأذنين) :

« ..لايعنينى .. ارجوك ..

- اتعنى ؟ قول ..
- ان ذلك لا يعنينى .. والآن ارجوك ..
- لاشك أنك لم تفهمنى جيدا ..
- بلا .. فهمت تماما . اتفضل من هنا ..
- ربما تتخيل ليست هى التى كتبتها .. ربما تتخيل ان ...
- لا أتخيل شيئا .. لقد قلت لك اننى مشغول .. لدى بعض الأعمال . ارجوك ان ..
- ومع ذلك فلعلك استطعت التعرف على صفحة هذه المفكرة ...
- محتمل .. اتفضل من هنا لو سمحت ..
- لكن .
- الا ان كنت تفضل ان اتصل بالبوليس ؟
- حسنا .. أه ، كأن .. حسنا . حسنا .. لكن ، ربما ..
- لا .. الى اليسار ..
- ربما اثار ذلك اهتمام شخص آخر ..
- تماما : شخص آخر ..
- آه ، انصحك ..
- تنصحنى ؟ ..
- ما علينا ، حسنا ، لكنك ستندم .
- لن أدخل ممسكا بالباب مفتوحا لمدة ساعتين . لو سمحت .
- حسنا .

- لو سمحت ..

- حسنا .. ستندم .. ايها الـ .. »

ثم صوت الباب وهو يغلق ، ويستدير والدها ، وقد تحول لونه الى البنفسجى تماما الآن ، واقفا بلا حراك فى نفس المكان ، قائلا : « آه ، أهو انت ؟ هل سمعت ؟ شقيقتك . شقيقتك العبيطة .. اين انت ذاهبة ؟ ..

- سأعود ..

- اين ..

- سأعود حالا ! »

أما بالنسبة لموريس ، وفقا لما قاله فيما بعد ، فقد مرت الأحداث فى ايقاع سريع : خطوات حادة تحاول اللحاق به (لكنه لم يستدر) ، ثم سمع صوتا خلفه (لكن حتى فى هذه اللحظة ايضا لم يستدر) وتبادر الى ذهنه صوت امرأة ، الى ان سبقته ، ووقفت امامه ، قائله بسرعة ، دفعة واحدة ، لاهثة الأنفاس . بينما وقف هو يرمقها بوقاحة من اعلى الى اسفل ، يتفرس وجهها الدقيق ، بملامحه المشدودة قليلا ، ثم راح يخفض نظراته قليلا ، مقدرا سعر الفستان ، والحلية التى ترصع صدرها ، وأكتشف اخيرا بطنها المنتفخ الضخم ، المتعالى ، الهادىء .. « اصغ : ان أبى لا يفقه شيئا فى كل هذا ، انا .. »

هو - من انت ..

- اختها . ان ابى ..

- اختها ؟

- نعم .. اصغ : لا يمكننا التحدث هنا ؟ اننا ..

- هل هو الذى ارسلك ؟

- هو ؟ من ...

- العجوز ، قالها بأكبر قدر ممكن من الفظاظة . يطردنى ثم يتخيل الآن اننى ..

- لا .. لقد وصلت .. اعنى : حينما كنت تتصرف . وسمعت .. ان ابى شديد العصبية . ما كان يجدر بك .. بالطبع لم يكن بمقدروك ان تخمن . لكنه يجب على انا ان .. » .

ظل برهة يتأملها . مضطربا ، مزودا ، يتساءل عما لم يكن يتبينه ، مجتهدا فى التفكير باسرع ما يمكن (وحينما علمت فيما بعد كيف مضت الأمور ، بدا لى وكأننى اراها ، انا ايضا ، بذلك الوجه الذى لم تفكر - أو ان الفكرة لم تطرأ لها على بال - ان تجتهد او تحاول اتخاذ تعبير يتفق مع كلامها ، مع ما قامت به توا :

ان تجرى فى الشارع ، فى وضح النهار ، فى مثل حالتها ، وبطنها يتقافز بثقل امامها ، وقبعتها فى يدها ـ كانت قد خلعتها منذ لحظة عندما دخلت عند والدها ولم تفكر ، او لم تجد الوقت الكافى لترتديها ـ وراحت تنادى ـ ثم تلحق بموريس وتجبره على التوقف وكانت هى فى هذه اللحظة لاهثة الانفاس ، تكاد تنطق كلماتها الأولى بعناء ، دون ان يغير كل ذلك ، او يمس بأى صورة من الصور ذلك البرود أو الغرور الهادىء الاصم والمتكامل الذى كان لا يتفق الى حد ما مع تصرفاتها ، وكأنها وقفت الى الوراء نوع ما ، تنظر الى اتجاه آخر ، تنتظر بصبر وكأنها ترقب احد الخدم حتى يفرغ من القيام بمهمة سخيفة ، مقرفة او مقززة) محاولا فهم ما الذى كان يدور خلف هذه النظرة التى كانت تبدو وكأنها تتجاهل وجوده وان كانت تنظر اليه ، تخترقه ، تنكر وجوده ـ تلغيه ، ذلك الوجه البارد ، ذلك الفم الذى يتفوه بكلمات ترضية ـ متواضعة ، دون ان تكلف نفسها عناء تصديق ما تقوله ، فقال موريس فى نفسه : « ومع ذلك فلقد جريت .. وبسرعة . جريت بسرعة بحيث انهكت تنفسها ، وتلك البالوعة البالغة من العمر ثمانية أشهر وربما اكثر والتى على وشك الانفجار ... » ثم اعتلاه الغضب ، واجتاحته الأهانة .. فقال : « لك ؟ لكن بما ان والدك الغبى لايهتم بذلك فلا أرى .. » فقالت : « اصغ : اننى مستعدة .. لكن ، لايجب ان نظل هنا ، لنسير .. انهم .. تعال ، لنسير » وفيما بعد (وهما يسيران كشخصين يتنزهان ، هى بخطوات مثقلة وقد هدأت انفاسها ، تقول بصوت صارم) : « لكن ، هذه المرأة من أى نوع تتخيل ؟ فقال « عن اى ... من اى نوع يمكنك ان تتخيلينها ؟ من أى فئة تتصورين ان ملاكما بل وغجريا سيختار لنفسه .. » . فقالت : « تقول : غجريا ، ملاكما ؟ » فقال : نعم : لكن .. ما اهمية ذلك ؟ ان يكون غجريا او زنجيا او حتى .. » . فقالت : « لاشىء ، بكل تأكيد ، انا .. لكن مثلا هل تعتقد انها فعلا رفيقته ؟ اعنى .. » . فقال : « ان كان يضاجعها ؟ أذلك ما تودين قو .. » . هى : « اعنى ان .. » . فقال .. ؟ لم اذهب لارى ذلك . لم يدعواننى . لكن ان آثرتى تصديق عكس ذلك ، فلا أرى اى مانع . ثم لماذا لاتسألين اختك عن كل ذلك ؟ يخيل الى انها .. » هى : « محال ! » .. هو : « ماذا ؟ ما هو المجال ؟ ما الذى اقوله يالهى ! : محال ! .. أتتخيلين ان اختك انسانة شابة حسنة التربية لكى .. فقالت بسرعة : « لا . اصغ . لقد احسنت صنعا . اعنى : بمجيئك . اعنى : ان والدى لايمكنه فهم .. لكنك احسنت صنعا .. اعنى لن تندم على ذلك . سأتصرف بحيث انك .. لكن ! أتفهم : اعرف انها متهورة شىء ما ، لكن كونها .. اعنى : هل انت متأكد ؟ الم تخلط .. اعنى : تصورت شخص آخر .. او اسأت التفسير .. »

فقال : « اسأ .. آه .. مثلا . اسأ ... وهذه ؟ هل تجيدين القراءة ؟ أليس خطها ؟ ايمكنك ان تقولى من اى مفكرة .. ؟

ثم تحرك شىء ما اشبه ما يكون بضربة جناح طائر حركة خاطفة ، غير مادية ، برق لونه رمادى مصفر اعترى وجهه ، اسرع من الحمامة ، واسرع من لطمة الوجه . ثم وقف على الرصيف ، مذهولا . كألابله ، ينظر بغباء الى يده الخالية ، بينما كانت هى ترتب من وضع ياقة ثوبها بهدوء ، وتربت عليها بأصابعها المرتدية القفاز ، تربت على كسرات الفستان التى وضعت تحتها ، وضعت تحتها .. وبعد فترة قصيرة (وقد جاهد ان يظل هادئا ، جاهد الا يرفع صوته ، ضغط على اسنانه ، يفتح شفتيه بغباء ، واختمر فى رأسه ذلك الشعور بان هناك شيئا ما على وشك الأنفجار ، التفتت) استطاع ان يقول : « اعيديها لى ! » . وعندئذ ، ودون حتى ان تضحك ، دون حتى ان تبدو عليها ايه علامة للأنتصار ، للسخرية قالت بصوت محايد ، لاطابع له : « اعيد اليك ماذا ؟ ! » فقال : تلك الورقة . تلك الكلمة التى كتبتها اختك العاهرة .. هيا . بسرعة . أتسمعين ؟ أعيديها .. » فراحت تتفرس وجهه . لحظة ربما كانت خمس ثانية . صوبت نحوه تلك النظرة الباردة ، الخالية من التعبير ، لم تكن حتى نظرة احتقار ، بل ولا قرف ، وقبل ان تحيد بنظرها كانت قد كفت عن النظر اليه ، محته ، القت به فى عالم يبدو شكلا انه لم يقربه من قبل ، ثم استدارت اخيرا كلية بينما راح هو يرمق الشارع حولهما بنظرة خاطفة ، يائسة ، احاط بها الطريق ، والمارة ، وفناء المقهى بكل الجالسين يحتسون المشهيات ، وعندئذ ، ومازالت اسنانه ضاغطة على بعضها قال : « ايتها القذرة ! » ثم قال : « يابنت ديـ ... » ثم : « ايتها العاهرة الوغدة ! » ، ثم راح يكررها ، ويعيدها صمتا وهو يراها تبتعد ، بهيئة مثقلة ، متعالية ، هادئة . مرفوعة الرأس ومستقيمة ، وهى تختفى هناك ، عند طرف الشراع ، بين المتنزهين مساء .

— ١٣ —

وكان مونتيس يفكر : « لكن ترى لماذا يقص على كل هذا » ؟ وقال لى انه ظل هناك ، بلا حراك . فى نفس الوضع الذى كان عليه حينما فتح الآخر باب الغرفة بضربة قدم وصفقة على الحائط ، لكن يداه كانتا خاليتان الآن ، ممدودتان على الملاءة فى نفس المكان الذى سقطتا فيه انتزع منهما موريس الكتيب ، بينما ظل موريس لحظة وكأنه متحجر ، مأخوذ ، يتطاير الشرر من عينيه ، ومذهول ، يعيد ويستعير نظره على العنوان ، على الكلمات ، على الأحرف المطبوعة بلافهم ، ودون ان يتمكن من التصديق ، واخيرا تمالك ، والقى بالكتيب بعصبيه عارمة فى نهاية الغرفة .

انه يصف لى هذه اللحظة : كان قد توقف ، توقف وسط ذلك الغضب العارم ، الطوفانى (وربما الغثيانى) ، او بتعبير ادق ذلك الغضب العدوانى . ففى الواقع كان الوضع اشبه ما يكون بذلك : لقد جرى مباشرة من الحانة حيث قذف فى جوفة ثلاثة او اربعة كئوس من « البرنو » الى الفندق ، والى الغرفة ، وكأن معدته الخاوية تمتلىء بالكحول ، كانت صورة الغرفة ، ومن فيها ، تتكون تدريجيا فى مخيلته . مثل الرموز نفسها ، لكى أصل ان لم يكن لسبب الفشل الذى لاقاه توا ، او لشعوره بالاهانة والخجل .

ظل واقفا اذن ، كالمخنوق ، غير قادر على التحدث . يحاول ولاشك ان يصدق حقيقة او واقع ما قرأة (عنوان تلك المجلة) كما كان يحاول ان يصدق الواقع الذى تراه عيناه : سرير طلبة الداخلية (شبه جنائزى : الملاءة مرتبة تقريبا . لايكاد الجسد يرفعها ، مرتبة ، مسطحة ، حتى ابطيه) ، وجلابية طلبة الداخلية ، بوجهه المبتئس ، الهادىء والذى يوجد به تحت حاجبين غليظين . عينان دائمتا التفكير والحزن ينظر اليه دون ان تحاول اليدان التحرك لتاخذان ما انتزعه منهما – الى ان طارت المجلة خلفه . ولم ينظر حتى اين سقطت . ولم يعتذر ثم نجح فى انتزاع نفسه ، فى ان ينسحب من ذلك الاغراء (او لعله اجبر على الانتزاع . من جراء تلك الثورة الداخلية ، من اعصار الغضب الذى يجتاحه . من ذلك الحزن

الغارق فى شراب «البرنو» ، وبدأ يحكى له حكايته . اى ، بقول آخر ، بدأ يخرج ما بنفسه ، ان يلقى به فى وجهه ، لا اكثر ولا اقل كأنه لم يكن البادىء بسرقة البضاعة التى حاول بيعها والتى قد سرقت ، فلم تكن محاولته الا محاولة لابتزاز الاموال مسبوقة بمحاولة مساومة مع نفس الشخص الذى جاء ليصرخ فى وجهه باهانته وبغضبه من أنه ضحك عليه ، وكأن هناك مؤامرة تربط فى ذهنه بين مختلف شخصيات الموضوع الذين انابوا عنهم من هو اكثرهم خيانة ولؤما لتجرده ، ولاشك ان الكحول المبتلع بكثرة كان يؤثر حاليا بصورة مقيئة ، لا على المعدة وانما على ذهنه ، وقلبه ، محركا كل ذلك القىء فى شكل تلك الخطبة غير المترابطة التى كان يرتجلها ، خالطا مابين شذرات مغامرته ، وتهديداته ، وشتائمه العدوانية ، الصارخة ، المغالية والمقلقة .

ثم صوت الباب وهو يخبط بشدة . ثم الصمت . ومن الخارج ، لم يعد يأتى ، إلا صوت الريح المنسى .

ان صوت الحفيف المتقطع الناعم وهو يحتك بالجدران كان أشبه ما يكون بخطى لص منتعلا حذاء قماشيا ويهرب ملتصقا بالجدران مثلما يهرب الزمن ، يهرب نهائيا ، كالدماء وهى تنساب من جرح فتفرغ الجسد . والحياة . فى يأس بطىء ، ومن مكان ما يأتى صوت خبطات ضلفة شيش غير مغلقة تماما او شىء يتدحرج ، مثل طوبة جمالون تتساقط . بلكونه . ارضيات . ثم لاشىء : ومونتيس مازال فى نفس الوضع . (لم يكن قد تحرك قط . لم يفتح فمه . لم تبدر عنه اية حركة) ، كان هو الآن ينظر امامه الى المكان الذى كان يتحرك فيه الدخيل ، بتوعداته وحركاته ، الجدران عارية رمادية . خالية . لكنه لم يتحرك اكثر من ذى قبل ، ولم يفكر حتى ليقوم ويأخذ المجلة ويعاود قراءته . وقال لى انه لايذكر حتى انه مد يده ليضغط على زر النور . فلم يكن يرغب فى النوم : لم تكن الا رد فعل ، حركة آلية ، وببساطة اظلمت الدنيا . وهو مازال ممددا . وان عاد ذراعه الى وضعه فوق البطانية ، وجسده لم يكن فى وضع نوم أو استرخاء وانما مستقيما ، متخشبا ، كالجثة ، القدمان مضمومتان . العينان تحملقان فى الظلام . وبعد فترة ، بدأ يميز مستطيل النافذة الفاتح بعض الشىء . بينما ظلال اغصان شجر السنار المتداخلة تتراقص بلا هوادة على سقف الغرفة .

قال لى انه لم يكن يفكر فى شىء بالتحديد ، ولا حتى فى روز ، أو فى اى شخص آخر بالتحديد ، ولا حتى فى آخر من رآه فى ذلك الأقتحام الخاطف ، العنيف ، المضحك والمحزن . فلا يوجد ، على حد قوله . افظع من الشخص الذى يتخبط باحتساء الخمر وتوجيه الشتائم ضد قرفه) والذى بدا وكأنه انبثق

من صمت الليل واختفى بنفس الطريقة ، وقد تم ابتلاعه أو امتصاصه بنفس الطريقة : كأن شيئا آخر ، شيئا اكبر من الشغف ، من الرغبة او الاحباط ، بل واكبر من اليأس . » اشبه ما يكون بالموت ، كأنني ببقائى ممدد ، بلا اية حركة ، وبلا اية افكار ، وقد انجح فى ايقاف كل شىء ، وان يكف العالم نفسه عن الدوران ، ليتوقف اخيرا .. وبالطبع .. لم تكن لدى اية فكرة ، لم اكن اتوقع بتاتا كل ما حدث ، وما كان يحدث بالفعل ، او بدأ يحدث ووصل الى مرحلة الحل النهائي ، وكأنه وصل الى المرحلة الأخيرة الشبيهة بالولادة البطيئة المعقدة التى كادت تنفرج .. لا .. ان كل ما كنت اشعر به كان مجرد تعب ، لكنه تعب مهول ، غير محتمل ، لدرجة المعاناة ، لدرجة التمنى بكل قواى ان اموت ، ان اموت حقا ، وان ينتهى كل شىء . حتى ان ينتهى كل شىء لكى استريح . ولا اى شىء آخر . لاشىء سوى ذلك التعب .

ولا تتخيل اننى كنت افكر فى الانتحار : فالانتحار مازال عملا من اعمال الأحياء ، ولم يكن فى مقدورى الا ان اكون سلبيا . بل ولا حتى السلبية ، الا افعل سوى ان احتمل ، فقد كان تعبى اكبر من ذلك ، ليست شجاعتى او مقدرتى ، او رضوخى للمعاناة ، لكنها قواى ، لم اكن قد احتسبت شيئا (فلو شعرت بالرغبة او واتتنى مجرد الفكرة ، لفعلتها) ، ومع ذلك فقد خيل الى ان كل شىء يدور . والشىء الوحيد الذى كنت اتمناه حاليا (ولا اعنى التمنى : فالمرء لا يتمنى حاجة ، أو ضرورة ، أو الحاح) هو ان يقف كل شىء بأية وسيلة ، لكن ليتوقف بحيث عندما اجتزت هذا الباب ، حينما رأيته ـ اعنى الملاءة : كان الجسدان ارضا وكانوا قد انتزعوا احدى الملاءات وألقوها عليهما ، ولم اكن بحاجة الى رفع طرفها لأرى ما الذى تحتها ـ وفى هذه اللحظة ، كل ما كان فى مقدورى ان افكر فيه هو : انها ماتت . حسنا . حسنا .. انها محظوظة » .

وقال لى : لأن ذلك حدث هكذا على اية حال هذا هو ما عاشه ، هو : عدم التوافق ، تلك المواجهة العنيفة ، اللا معقولة شكلا ، وكل هذه المشاعر والوجوه ، والكلمات ، والأفعال . كأنها قصة . يتصف ترتيب الجمل بها او اجروميتها ـ الفعل ، الفاعل ، المفعول ـ بأنها ناقصة مثلما يحدث لاى مقال فى الجريدة (الأحرف المتراصة برتابة ملولة رمادية كئيبة ، والتى تؤل اليها كل احداث العالم) حينما ننظر صدفة الى ورقة ممزقة قد استخدمت فى لف حزمة كرات ، وعندئذ تدب الحياة بشكل متعال مستقبل ، بفضل سحر بعض الأسطر المبتورة الناقصة ، لتصبح ذلك التداخل غير المنظم ، بلا نهاية ، ولانظام ، كلمات تتفجر بحكم انها فصلت وتحررت عن قاموسها ، بعدت عن تلك الرتابة الكالحة ، عن ذلك

الاسمنت الذى يحشون به اى شىء والذى يستخدمه المحرر كالصلصة . كالصلصة البيضاء اللزجة ليلصق الموضوع اجمالا بقدر الأمكان ، بحيث يصبح قابلا للهضم ، او يلصق اجزاء عابرة متناثرة لشىء لا يهضم مثل رزمة ديناميت او حفنة زجاج مجروش : وبفضل ذلك (او بفضل عالم النحو والصرف ، او المحرر المسئول ، او الفيلسوف العقلانى) يستطيع كل منا ان يبتلع كل صباح ، فى نفس الوقت مع وجبه الأفطار ، نصيبه المهدىء من جرائم القتل ، والعنف والجنون المنظم ، بصرف المنظر عما اذا كان ذلك يعجبه ام لا (وظاهريا ، وعلى عكس مايفكر ، فان ذلك لا يعجبه) ، ويلجأ استكمالا الى تحضير الأرواح ، والتنجيم فى القهوة ، وايقاد الشموع ، ورسل السماء او رسل مستشفى المجانين .

فى كل قصة اذن ، او فى كل مرة حدثتى فيها فيما بعد عن هذه الأيام (فلم يقص على من كل هذا الا شذرات ، تدريجيا ، وليس على هيئة قصة متماسكة وانما وفقا لشتى التفاصيل التى تتبادر الى ذهنة ، دون ان أدرى سببا ـ مثلما لا نعرف ابدا تماما ما الذى يدفع بالذكرى المدفونة فى مكان ما من مخبأ الذاكرة تطفو عنيفة وغير محتملة ، لكنه كان يلغى الزمن ، الشعور نفسه ، اللحم والمادة ، الغيور ، المتحكمة ، المتسلطة) ، فكان يبدو وكأنه ينتقل بلا مقدمات من تلك الليلة التى أتى اليه موريس يقذف فى وجهه بتهديداته على رائحة خمر « البرنو » الى تلك اللحظة التى كان يدفع فيها الشرطى الذى يسد له الطريق (الشجار الخاطف ، بل ولا حتى شجار : فكان الشخص يقول : « عندك » ، وثانية : « الى اين انت .. » ، وهو لم يكن حتى يحبيه ، ليس تبجحا او لؤما ، لكن لانه لم يكن حتى سمعه ، مثلما لم ير هيئته المربعة فى الردهة ، مثلما لم يشعر باليدين ـ يد واحدة فى الأول ، ثم الثانية ـ وهما تحاولان الأمساك به ، وتعثران عليه تحت معطف المطر .

مثلما حاولا الامساك بموريس منذ يومين ، وقبضا على ذراع نحيل فى حجم ذراع الأطفال ، وافلت منهما ، ليس انزلاقا ، او هروبا وانما بالقوة : بهزة عنيفة واحدة ، جافة ، حادة ، امتدت كالزنبرك ، وذلك دون ان يبدو عليه انه يلتفت لما يقوم به ، ودون ان يكف عن السير ، بل ولم ينظر حتى الى من كان يحاول القبض عليه ، فقد ظلت عيناه مصوبتان على الباب هناك ، وقذف بالرجل الى الحائط ببساطه ، مثلما نستبعد ذبابة ، فقد قال لى انه لم يلحظ اى شىء ، لم يدرك حتى انهم كانوا من رجال البوليس ، ولا حتى انهم يوجهون اليه الحديث ، بينما كان هنا ، ساكنا واقفا ، ينظر الى تلك الملاءة عند قدميه والشكلان الممددان تحتها ، الى ان اخذ تلك اللطمة على وجهه والتى انفجرت فى رأسه كالصاروخ ،

فتأرجح ، تراجع الى الحائط الذى ارتكن اليه ، بينما كان الشخص البدين يصرخ فى وجهه : « اننى اسألك لثالث مرة ما الذى أتى بك الى هنا ، هل تتخيل اننى سأكرر ذلك حتى الغد ؟ ») ، فاقتحم الغرفة الوحيدة التى كانت روز تعيش فيها مع الطفلتين والغجرى .

كان ذلك فى اليوم بعد التالى وقد مضى ليلة بأسرها ، ثم يوما ، ثم ليلة اخرى . لكن ربما لم يكن مدركا تماما ، ربما ظل واقفا فى ذلك الوضع طول هذه الفترة أو فى حالة الجثة التى كان عليها (رغم انه نهض ، وارتدى ثيابه ، ونزل لتناول الأفطار ، وقام بما كان عليه القيام به) منهكا ، متهالكا ، على حافة المقاومة ، ليس الجسدية ، وليس المعنوية (لم تكن دناءة موريس ، ولا ضربات الملاكم ، ولا ذلك الكبت اليائس من العاطفة : « كل ذلك لم يكن الا معاناة ، على حد قوله بغرابة ، كما أن الذهاب عند طبيب الاسنان ليس من الامور المسلية) ، لكنه كان على حافة المقاومة العقلية : نوع من عدم الرغبة الذى وضعه فى حالة استحالة الاستيعاب ، ليس الطعام (فقد قال لى أنه أكل ، وان كان غير قادر فى اللحظة نفسها ان يقول ما هى نوعية الطعام الذى يبتلعه ولا ما هو طعمه) ، الا ان العالم الخارجى قد اصبح عبارة عن شىء لاشكل له ، مثلما فى رواية بلزاك وذلك المصور الذى من شدة رغبته فى الدقة والأتقان لم ينجح الا فى عمل لوحة ملطخة خالية من أى معنى : « حسنا . هل انتهينا » ، ولم يفكر حتى « ما الذى حدث ؟ كيف حدث ذلك ؟ » ، او اقل من هذا القول : « يا للفظاعة » ، متقبلا الوضع مثل بقية الأشياء لا اكثر ولا اقل ، اى مثل الهواء الذى يستنشقه ، مثل تنفسه ، او مثل كونه يعيش ، يضطر يأكل ليظل على قيد الحياة ، ينام ، يستيقظ ، ينام ثانية ، يغير ثيابه ، يعيد نفس الحركات صباحا ومساءً بين اشخاص آخرين يكررون أيضا نفس الحركات ، يغتسلون ، يذهبون الى المكتب ، او ينبشون الأرض ، يأكلون ، ينامون ، يستيقظون ثانية ، وفى النهاية يموتون ، قال لى انه كانت توجد بقعة داكنه على الملاءة ، بينما امتلأت الغرفة بالذباب ، لكن الذباب كان يوجد فى كل مكان منذ ان بدأ الجو يميل الى الحرارة ، ولم يقم بأى ربط بين الذباب وما كان يوجد تحت الملاءة ، ويجعلها تنبعج ، كما لم يربط بين البقعة الداكنة وفكرة الدم ، وان كان يعلم تماما ان هذه البقعة لايمكن ان تكون الا بقعة دم ، لكن مرة اخرى ، لم يكن الامر اقل او اكثر احتمالا من بقية الأشياء . وعندئذ تلقى اللطمة على وجهه . وقال لى ، بطريقة ما ، ان ذلك كان من حسن حظه . وقد شعر بالامتنان تقريبا لذلك الشخص البدين . لانه ، لولا تلك اللحظة ، كان

سيصاب بالجنون ، ليس من المعاناة ، على العكس ، بل على حد قوله ، من قلة المعاناة . او ربما كان الموقف عنيفا ، شديد العنف ، مثل تلك الجراح التى يقولون انها تخلق مسكناتها بنفسها ، وقد افادته هذه اللطمة ، ايقظته : قال لنفسه (وهو ممسك بوجنته الملتهبة ، مجتهدا بعناء ليحاول فهم ما الذى كان يصرخ به رجل البوليس فى وجهه) انه مازال بمقدوره ان يشعر ، ان يحس بشىء ما ، أن ينفعل ، حتى وان لم يكن الا رد الفعل البدائى للطفل الذى يرفع كوعه خشية الحصول على لطمه اخرى ، وظل يراقب يدا رجل البوليس ، فلاحظ اظافرة التى يحدها السواد ، شديدة الطول ، على هيئة المعول ، واكوام الشعر التى تعلو فقرات اصابة ، ودبلة الزواج ، ففكر فى نفسه : « اذن ، انه متزوج . يحب . وربما لديه اطفال هو ايضا .. » ثم تحركت اليد ، لكنها أمسكت به هذه المرة فى بطنه ، وبينما كان يندفع على الحائط وكأنه كان يتمنى ان ينزوى بداخله ، يحفر فيه ، يختفى ، راح كل جسده يتقوقع فى انتظار اللطمة القادمة . لكن شيئا لم يحدث تذكر انه شاهد يد رجل البوليس الآخر وهى توضع على الذراع الممدود . ثم اختفى الذراع والرجل البدين من محيط رؤيته ، ليحل محلهما (مثل تلك الصور الثابته المعروضة على الشاشه ، عندما تسحب جانبا لنترك المكان للصورة التالية) وجه بشارب صغير اشبه بفرشه الاسنان ، نحيل العود ، شاب وفى ذلك الوجه عينان تفحصانه باهتمام .

لم يكن قد تعامل مع رجال البوليس حتى ذلك الوقت . وقال لى ان هناك ، حيث يعيش ، فى قريته الصغيرة حيث الجميع يعرفون بعضهم بعضا ، لايوجد الا غفر الدرك . ولاشك ان ذلك (بالاضافة الى الحقول الخضراء ، والنهر النائم ، والخطوط الطولية لأشجار السرو) يمثل جزءا من النظام ، والتوازن ، الذى يتعلق به (او حاول الأعتقاد ، او كان قد قرر الالتزام بذلك ، وكأن بشكله الشبيه بالغرقى ، ووجهه الحزين البالى مبكرا ، شديد الطيبة وشديد الهدوء ، لم يكن يمثل عكس ما يتصوره . لكن ، ماعلينا : فقد كان هناك غفر الدرك للشكاوى ضد اللصوص ، ومبنى البلدية للأحوال المدنية ، والكنيسة لكل الباقى . شىء اشبه ما يكون بالمثلث ، بالثالوث ، مع ذلك المتشرد الخالد الوحيد العازف على آلة الكمان الذى يمضى به من حين لآخر (خاصة ايام الشتاء) . ويحصل على مساعدة من البلدية ، ويمد كاسكيتته يوم الأحد على باب الكنيسة ، بالأضافة الى بعض حوادث سرقة التفاح ، وخطف الأحاد غير الضارة حول الموضوعات التقليدية العامة للأبن الضال والحمل التائه ، ومناقشات مجلس البلدية فيما يتعلق بمشروع نافورة او اعمال الطرق . كما انه لم يسبق له ان واجه الموت العنيف من

قبل . ولايعنى ذلك انه يجهل الموت فى حد ذاته (فلقد حكى لى ذات يوم ، انه راعى والدته طوال فترة احتضارها الطويلة ، ثم اودعها وسط الزهور ، بين العبير العنيف ، الحاد والجنائزى لباقات الورد ، بذلك الشكل المعتاد للجاه المتصلب ، المتعالى الى حد ما ، المعادى نوعا والمحتقر الذى يبدو ان معرفة أو حيازة سر ما تضفيه على الجثث او على الأقل ما تضفيه الراحة ، راحة الضمير للراحل المسافر وقد وصل الى نهاية المطاف - او حتى وهو مستمر فى اسفاره فى عالم المجهول حيث يبدو ان المرء يدخله وهو مندهش ، وقد تخلى عن رغباته ، وارتدى افخر ثيابه ووضع فى صندوق فاخر مثل تلك الرسائل التى تهتم البائعات بالمحال الكبرى بوضعها داخل علبة اسطوانية الشكل ويرسلونها فى انابيب عبر اعماق غامضة) الا انه لم يواجهه (الموت) الا كنهاية فى حد ذاتها ، كخاتمة تأتى لتضع حدا لمشوار متطور ، وربما كان اليما ، مأساويا ، لكنها خاتمة معترف بها ، مقبولة ، تأتى بعد سلسلة من التطورات التقليدية (مثل الحشرات ، والضفادع ، والشرنقة ، والحوراء ، والشجرة السليب ، والشخص البالغ ..) ، فالمرض ، حتى وان كان مبكرا ، حتى وان كان قصيرا ، ليس الا طور من هذه الأطوار ، مجرد عملية اسراع لمرحلة الضمور الاجبارية الطبيعية التى تمثلها الشيخوخة ، مثل وفاة جندى او حتى شخص مدنى فى انفجار وقد سبقته مرحلة اعداد (تجنيد ، حالة حرب) ، والتى مثلها مثل المرض ، يمكن اعتبارها كالفصل الأخير ، الردهة ، قاعة الانتظار لما يسبق النهاية ، او ان آثرنا ، الانتقال الى وسيلة حياة اخرى : هى اشبه ما تكون باحدى هذه التراجيديات الكلاسيكية ذات النمط الثابت ، ذات البناء الثابت ، ذات المراحل والنهايات الثابتة ، والتى امكن تشبيهها بمصارعة الثيران بمعنى انه اذا كانت النهاية (موت البطل) معروفة مسبقا ، فلا يمكن ان يتم ذلك الا مراعاة لبعض الشكليات ، اى بعد اتمام بعض الطقوس ، وبعد عدد معين من الفصول ، والمقاطع الطويلة ، والصراخ العالية ، بحيث ان اى متفرج تأخر فى الحضور يمكنه ان يسأل احد الذين حضروا قبله ، ولا يكون السؤال : « ما الموضوع ؟ ما الذى حدث ؟ » ، وانما ببساطة : « نحن فى اى جزء ؟ » ، مدركا فورا ما هو الجزء المتبقى لمشاهدته ، بل هو بحاجة ان يسأل : اذ ان مجرد رؤيته لتعبيرات الممثل ، وحيوية الردود او حالة الثور يدرك الموقف .

لكن هذه المرة ، على حد قوله ، كان ثمة شىء لا يسير كالمعتاد . لاتوجد زهور : مجرد ملاءة ، ولاتوجد نهاية ، نتيجة : وانما انقطاع . كأن النور قد انطفأ فجأة قبل نهاية الفصل ، فى منتصف اجابة احد الاشخاص ، ثم يظهر الملقن

على خشبة المسرح ، ممسكا الستارة بكلتا يديه ، قائلا : « انتهى . اتفضلوا » ، ولكى يثبت قوله يفتح الستار ثانية وبدلا من الديكور الذى كان يوجد منذ لحظات ، بدلا من القصر ، والمعبد ، لا يوجد سوى المسرح خاليا ، الحائط الرمادى المتسخ فى الآخر ، الفراغ ، وعامل واحد بجوار الحائط ، ينتظر تحرك الجمهور ليطفىء ما تبقى من انوار . ثم ذلك وكأنه لم تراع أية قواعد . ولا حتى الصراخ ، ومدة الانتظار ، ولا حتى المهابة ، او اقل قدر من الاحتفال (وقد رفع رجل البوليس البدين منكبيه وارتكن الى قطعة موبيليا وراح يدخن ، وبينما كان الثانى ، ذو الشارب الصغير ، يتحدث ، رفع منكبيه ايضا ، ولاشك انهما يخصان الجثتين بهذه الحركة) ، بل ولا حتى الوقت : وكأنه دفع على عجل عن شىء اكثر سرعة منه ، يحاول جاهدا وبلا جدوى اللحاق بشبح الغجرى وهو مازال يجرى (مدفوع ، بالدافع الغرائزى ، وردود الفعل الاجمالية العريقة لجنسه البشرى : يقفز ، يضرب ، يهرب) وقد اصبح حاليا بعيدا تماما عن المنال بما انه مات ، ومازال (شبحه ، ذلك المندوب الذى يمثله فى العالم الآخر) ، مدفوعا بانطلاقته ، وجريه الرهيب الذى بدأ فى اللحظة التى قفز بها عند رؤية رجال البوليس (البرق ، حركة واحدة ذهابا وايابا ، وقد عاد الذراع مكانه قبل حتى ان يتحرك ، وكأن ملامسة اليد الخاطفة بصدر المرأة لم تكن الا خيالا ، وكأنه حتى لم يصفعها ، ما كاد يلمسها ، فتبدو ، اليد والسكين ـ او على الارجح بلا سكين ، فلا وقت لذكره : مجرد بريق معدنى ، نحيل ، بارد ، يكمل قبضة يده بينما كان (الغجرى) يهجم على الباب ، بلا ضوضاء ايضا ، وبلا صراخ : فربما لم يكن هناك متسع من الوقت لذلك ايضا او ربما الوقت لم يكن لديه وقتا لنقل هذه الأصوات ، مكتفيا بتسجيلها ، بتخزينها ليعيد تكوينها فيما بعد . فى تلك اللحظة التى تلى ما حدث مباشرة والتى يبدو فيها كل الاتجاهات تبدأ تباعا فى العمل ، وينفجر كل الضوضاء عندئذ ، ينساب مثل شريط الصوت لفيلم قد تعطل لحظة : ضجة فجائية : تداخل اصوات قبيح ، ترتفع فيه طلقتان ناريتان . بصوت لا يزيد عن طرقعه الباب ، بحيث مرتا تقريبا دون ان يلتفت اليها احد وسط الضوضاء (الأصوات ، النسوة فى اروابهم ، شعورهن منكوشه ، وجوههن فزعة ، يملآن درابزين السلم) : طلقتان خاطفتان ، لا معنى لهما ، متواضعتان ، عكس الابهة ، والهيبة الاحتفالية ، اشبه بلا شىء ، وبعد ذلك جسد الغجرى ملقى ممددا بطوله فى الردهة ، انفه مكفى على رزم النقود ، بطريقة لم يكن أى ملاكم ليخادع ليتفادى اصابته بالضربة القاضية ، ورجل البوليس الثانى يخرج من الغرفة ،

بينهم الى الشخص الذى اصابه ، قائلا : « لقد مَرَ .. » ، فإنك : « انك تتحدث عن هلفوت ، وماذا ؟ » ، ثم قائلا وهو يشير بحركة من ابهامه ، فوق كتفه « لا داعى لاستدعاء عربة الاسعاف : لأنها هى ايضا انتهت » ، ولا شىء أخر .

وفى الجانب الأخر من فناء مبنى الثكنات القديم ، كانت الشمس بدأت تلامس قمم بواكى الطوب ، تصبغها بلون برتقالى ، حيوى ، مرح ، وفى مكان ما كان هناك عصفور كناريا يغنى وكانت الجدران تردد الصوت ، وحيدا ، نضرا ، وانتفض مونتيس ـ فقد قال لى انه مازال لا يشعر بأيه معاناة ، كان يعيش فى تلك الحالة حيث تنعدم العواطف التقليدية ، وتفقد الكلمات معانيها التقليدية ، لا اكثر من « خوف » او « بأس » او « هلع » فاخفض عينيه ، والتقت نظراته بالملاءة ثانية ، كانت واضحة ، لايمكن اغفالها ، واسفلها ، تلكما الهيئتان الممددتان على البلاط البارد مباشرة ، ولاشك شبه عرايا ، مثلما كانا حينما خبط رجال البوليس على الباب ، هو الغجرى ، ربما كان حافيا ، وقد ارتدى بنطلونه بسرعه على قميص من تلك القمصان البيضاء الخالدة لم يقفل ازراره ، بل تركه مفتوح الصدر على شكل رقم سبعة كاشفا عند صدره الداكن بلون كعكة البهارات ، وكانت هى ترتدى قميص نوم باهت اللون ، شفاف من كثرة الغسيل ، وكثيرا ما كانوا يرونها وهى ترفه اثناء ساعات فراغها بعد الظهر ، بوجهها الذى يحمل بقية أثار اصابتها بمرض الجديرى ، مما كان يجعلها تشبه تلك التماثيل القديمة المشوهة المعثور عليها فى قاع المحيط ، وتحت الانقاض ، وجسدها الضخم غير المتساوى ، الناصع وصدرها الناصع ، الضخم ، المتعرج ، وقد تدفقت الحياة من طرفيه اللذين بلون البنفسج الفاتح الباهت ، الخشن ، والجاف حاليا . وفوق الحوض كانت هناك زجاجة لبن مزروع فيها زهرة ليلك شبه ذابلة . واسفل الحوض قطعة نسيج حمراء اللون منشورة على حبل ، كانت ولاشك تخفى بعض الآنية القذرة او صندوق القمامة . لم يكن قد دخل هذه الغرفة من قبل وراح الآن يتأملها (لم يكن محتواها مقززا ، ولا شديد البؤس : مجردا ينم عن الفقر ، لا اكثر ، اى كان ينبعث عنها تلك المهابة ، او الصراحة ، التى تنعكس من الاشياء ذات الطابع او الدور الاساسى ـ لم تكن « المائدة » ، و « الاناء » ـ : وكانت ارضيه المطبخ من البلاط ، عارية ، وبلا اى اثر للتراب ، والجدران عارية ، مدهونة باللون الازرق ، بالجير ، يحدها سوكلو بنى ، وبه بعض قطع من تلك الموبيليا المشتراه من سوق الكانتو ، لكنها نظيفة ، اعيد طلاؤها ، البوفيه ذو الارفف لونه اصفر داكن يميل للأخضر ، والارفف نفسها مغطاة بورق قصت اطرافه بشكل زخرفى وعليها طبقا زينة ليست من الأطباق القديمة او النادرة ، لكنها مزخرفة بوحدات من الزهور

ومجموعات من الفاكهة ، بالاضافة الى زجاجتى « عرقى » اسبانى من الزجاج الملون الرخيص ، تمثل الرسوم التى على احداهما مصارع ثيران بمعطفه الأحمر القانى ، والزخارف الذهبية تعلو حلته وقبعته السوداء . والزجاجة الثانيه .. عليها رسم راقصة ، كما كان يوجد فرن من المعدن المصبوب بشعلتين ، سوداوتين ، منخفض الشكل ، وكأنه محنى الظهر ، باقدام قصيرة مقوسة ، وقد وضع امام المدفأة المصنوعة من الخشب (مدهونة هى ايضا . مثل سوكلو الخبران ، باللون البنى) وهى عارية تماما الا من قست لبن من الألومنيوم موضوع على اليمين ، وكذلك المائدة المستديرة المغطاه بالمشمع المتشقق . اصفر اللون ، برسوم زرقاء وحمراء تقلد احد المناظر الطبيعية الشرقية من النخيل والأهرام، ونسوة حول حنفية المياة ، وفرسان . وفى نهاية الغرفة اشبه ما يكون بالخلوة ، تحجبه ستائر وردية اللون . باهته ، مزدانه بورود صغيرة . يحيط بها اربعة مقاعد ، وعلى الحائط نتيجة من نتائج البريد وبجوارها صورة فوتوغرافية مكبرة (وجهان احدهما بشارب وسط هالة شاحبة . لكنه لم يكن وجه روز ولا الغجرى) معلقة فى اطار بيضاوى اسود (قرب السقف ، فقط لاغير) ، وكأنه يحاول ان يتشبع منها ، ان يستحوذ عليها . الى اللحظة التى ادرك فيها وكأنه كان يضاجعها جثه ، وقد تقبل هذه الفكرة لأول مرة ، على حد قوله وهو يفكر : « هل كان يجب ان انتظر موتها لكى اضاجعها ؟ » ، وفكر ايضا : « وكم كان بمقدرونا ان نقوم بذلك بمنتهى السهولة ! » ، ولم يشعر باى حرج من هذه الأفكار ، ولم يحاول ابعاد هذه الصور ، والأفكار ، ولا حتى (حينما ادرك) حينما شعر برغبة فى الضحك ، كأن هناك شيئا ساخرا بائسا يهز كيانه ويلوح امامه كمن يهش ذبابة ،

فحاول ان يوقف تلك الدغدغة التى تعترى وجنتبه وهو يكرر للمرة العاشرة لرجل البوليس (كان الآن جالسا على مقعد ، منذ فترة ما ، على حد قوله ، لانه لاحظ فى مواجهته ، فى الجانب الأخر من الفناء ، ان الشمس قد مالت لتلامس الصف الثانى من البواكى ، واضفى وهجها على مجموعة من علب المحفوظات المستخدمة كأوانى للزهور وبينها بقعة حمراء لزهرة جبرانيوم ، كما لاحظ دخول وخروج اشخاص عدة مرات ، لم يكن بينهم الرجل البدين او ذى الشارب ، اشخاص آخرون ، لكنه لم يلتفت اليهم ، بل ولم يشعر بالحاجة للنظر اليهم ليدرك انهم لم يكونوا الا اشكال اخرى من نفس نوعية الشخصين الآخرين ، يروحون ويجيئون فى الغرفة ، يحركون الموبيليا ، يبحثون فى كل مكان ، يتحدثون همسا ، يخرجون ، ثم يدخلون ثانية) ، فكان يحاول اذن ان يشرح للمرة العاشرة لرجل البوليس ، ان صاحبة الفندق هى التى اضطرته ، فارتدى ثيابه على عجل دون ان

يفكر حتى فى حلق ذقنه ليعبر الميدان ، ويصعد السلم كل اربع درجات فى خطوة ويصل هنا ، وفى هذه اللحظة ادرك انه لم يعد الشخص ذو الشارب هو الذى يتحدث اليه لكن الشخص البدين ، ولم يكن يتحدث اليه بالشكل المفهوم ، فقد كان الان هو ايضا جالسا على مقعد ويبدو انه لم يكن حتى ينصت اليه ، وعندئذ توقف (مونتيس) عن الحديث ، فقال البدين كمن يود شغل فترة الصمت : « هل كنت تعرفهما جيدا ؟ » فقال : « نعم كنت ... » وفى هذه اللحظة نظر الى الملاءة ورأى » المكان الذى كانت توجد فيه بقعة الدم الحمراء منذ فترة قد تحول الى اسود تماما ، فانحنى ، هش الذباب ، بينما الشخص البدين يتابع حركاته بعينيه . بلا انفعال ، بنظرة ميتة ، وراح يتأمل هو ايضا الشكلين الممدودين ، سحب علبه سجائر زرقاء من جيبه ، دفس واحدة فى فمه ، اشعل الولاعة ، اسبل عينيه ، خفض رأسه ليبعد اللهب عن انفه ، ثم اشار بذهنه الى اقصر الجثتين طولا ، وقال عبر الدخان بصوت تحول فجأة الى العطف ، المندهش ، الفضولى ، بل المتفاهم ، بل حتى الرحيم : « اكنت تضاجعى ؟ » . وتغيرت ملامح محدثه مرة اخرى ، نظر الى وجه رجل البوليس الآخر ـ الشارب الصغير ، الياقة النظيفة ، الشعر المدهون ، رباط العنق البسيط ـ وملامح يعلوها تعبير التصالح ، وعلى فمة علامة برطمة خفيفة ، وهو يصدر بعض الأصوات غير الراضية ، المتضايقة قائلا : « ما عليك .. » وفى نفس اللحظة راحت يده النحيلة ، المزدانه بخاتم عليه احرف اسمه ، تدفع بثبات زميله الى الوراء ، وفجأة كف عن الكلام ، استدار حاول استكشاف ما الذى كان مونتيس ينظر اليه فوق كتفه ، الى مكان ما فى نهاية الفرقة غير المرتبة . (قال لى مونتيس : لا ، لم يكن ذلك ، كان بوسعهم تفتيش كل شىء ، نثر محتويات الأدراج ، التحدث عاليا ، الذهاب والاياب ، دهس اعقاب سجائرهم على الأرض دون مراعاة لما يوجد تحت الملاءة ، لم يكن ذلك تدنيسا . فإن كنت تعلمت شيئا منذ ان وصلت هنا ، منذ نصف ساعة ـ او الساعة ، او الساعتين ، او القرن من الزمان ، لم اعد اعرف ـ التى امضيتها على هذا المقعد ، فهو ان الموت عكس ما هو مقدس (على كل حال ما قمت به انا من تدنيس ، من اغتصاب فكرى للجسد الذى كان مازال دافئا ، وغرس شفتاى فى الغابة أبطها السوداء ، وكأنى اغرسها فى نباتات ـ الا يقولون ان الشعر والأظافر تستمر فى النمو عند الموتى ؟ ـ مازالت تعيش من لحمها ؟) ، عكس ما هو غامض ، فهو واضح اكيد ، لايمكن انكاره ، التأكيد الوحيد الذى يحصل عليه فى نهاية المطاف : وإن كانوا يحيطونه بجو الهيبة الناجم عن الموت ، والزيف ، وتلك المهابة الفخمة التهريجية ، وكأنهم يبعدون ، يخفون المرأة الجميلة فى تأليه من

الفخامة ودموع فضية ، وسيل من التحيات فى حين أنها لم تعد سوى قليل من اللحم المتعفن !

وقد قال لى ان وقع ذلك عليه كان بمثابة لطمة اخرى ، ايقظته ، جعلته يطفو على سطح ذلك الخمول ، ذلك اليأس السلبى الذى كان قد لجأ اليه ، متربصا ولا شك بلا وعى اللحظة التى يمكنه فيها ان يخرج ، ان يواجه ثانية الفراغ الخارجى العنيف ، الهواء ، الريح ، الضوء ، الوحدة . وكأنه ، فى تلك الجلسة فى الزمن الملغى بجوار روز الميتة ، محبوس ، غائر فى ذلك اللحم ، فى تلك الرائحة الثقيلة لزهور الليلة الذابلة ، التى تتحلل ببطء ، وجبر نفسه وكأنه يعود الى نوع من الحالة الجنينية ، الملفوفة كاللولب فى تلك السكينة المؤلمة والمعذبة لحياة داخل الرحم والتى كان ـ لثانى مرة ، لثانى مرة من بين فخذى امرأة ، وان كانت تصغره بخمسة أعوام ـ سيطرد منها ، سيلقى ، صارخا مرعوبا ، فى الفراغ . وقال هو فيما بعد : « وان احتسبنا العمر لا بالنسبة الى الزمن الذى عاشه المرء لكن بالنسبة للزمن الذى يفصلنا من نهايتنا المحتومة ، فقد كانت هى الآن اكبر منى ، بما انها سبقتنى ، لا لكى تموت فحسب ، انا الذى انتظرت خمسة وثلاثين عاما ، مما يعد كثيرا نوعا ما لنأتى الى العالم ، لكن .. » ، وحاول ان يضحك ضحكته التعسة ، بلا سعادة ، وكأنه يعتذر ، لكنه كان يختنق ، لم يكن يتمكن من انتزاع دغدغة هازئة من حلقه ورحت ارقب وجهه بينما كان ذلك التعبير الغريب يمحى من عليه ، تعبيرا يائسا مبتسما فى آن واحد ، بينما كانت ملامحة تزداد نمورا ، تبتدل ، تحت تأثير اكتئاب غير محتمل ، ثورة ما ، ربما كانت نفس الثورة التى طالعها رجل البوليس حينما رآة بدأ يقلق فجأة على مقعدة ، ينهض ، يحاول فرد جسمه النحيل ، يمد قناع الغرقى أو قناع الغارق الذى انقذ لتوه والذى اصبح الآن يمثل عكس الخضوع ، وعكس السلبية ، بحيث قال رجل البوليس : « هيا ، هيا ! » وراح يتمتم بعض عبارات التهدئة ، ثم قال دون ان يستدير ، دون ان يكف عن النظر اليه : « يافندم ، أنه سأل عن الأطفال ! » ، ثم ثانية : « هيا .. هيا » واضاف بعض عبارات الاستخفاف ، ثم اضاف دون ان يستدير : « يافندم ، انه .. » .

ـ لقد سمعت » ثم رآة مونتيس : وجه آخر ، له انف ، وفم ، وشعر ، وبدلة ، وهيئة اذا ما نظر اليها على حدة ، لكانت مختلفة عن الاثنين الآخرين ، الا ان الشكل الأجمالى العام كان مماثلا لهما تماما ، محاطا بتلك الهالة الغامضة . المقلقة ، لشخص قليل الأجر ، محتقر وبخشونه ، يتميز بشىء ما لا إنسانى او

عكس الانسانى ، نفس النظرة المغلقة ، الكالحة ، نفس العين التى تبدو عند بعض الحيوانات وكأنها ليست بحاجة الى جفون ، لتخفى تلك النظرة الحادة الخابية ، النائمة ، والتى كانت تتفحصه (لاشك من فترة مضت ، وان لم يستطع تحديدها ، كان واقفا وسط محتويات الأدراج المبعثرة ، يداه فى جيوبه ، الجاكيت مفتوح يكشف عن صدريه ردئية المكواد ، وقبعته مدفوعة الى الوراء) ، ثم تحرك ، ونظراته مثبته على مونتيس ، بينما كان يردد مرة اخرى ، موجها حديثه اليه الآن : « الطفلتان ، والذى ...

ـ انهما بخير ، تحت الرعاية » وتوقف على مقربة خطوات منه ، ويداه مازالتا فى جيبه .. كان يبدو وكأنه يتجاهل الملاءة وما تحتها .. فلم يصوب تجاهها ولا نظرة واحدة وهو يقول : « وهكذا ، اذن ، فقد كانت صديقتك ؟ » ، نطقها دون حتى ان ترمش عينه او تندهش ، بوجه محايد تماما ، وكأنه غير مبال ، بل وملول ، ان السؤال لم يكن يتطلب حتى اية اجابة بما انه بدأ وكأنه فقد اهتمامه فجأة بمونتيس ، ولمس كتف رجل البوليس الآخر باصبع يده وبدأ يتحدث معه بصوت منخفض ، بحيث ان مونتيس لم يوجه كلامه الى وجهيهما دائما الى ظهريهما ورقبتيهما العمياوتان ، رافعا منكبيه ، وهو يرفع صوته ليجبرهما على الاستماع اليه قائلا : « ان كنتما تبحثان عن صندوق المجوهرات ، فلقد سلمته امس الى احد رجال الدين لكى يعيده ... » .

- ١٤ -

حدث ذلك على النحو التالى : هو والمفتش ، الذى ناداه الآخر بلقب " افندم " والقس ، الثلاثة واقفون وسط تلك الرائحة الكالحة للبخور التى تبدو وكأنها تنبعث من المبنى نفسه ، من الجدران ، من الموبيليات الملمعة بالمشع (وقبل ذلك خرجوا من الغرفة ولم يلحظ متى مروا بجوار الملاءة ، لم يلتفت ، اجتاز عتبة الباب دون ان يتوقف ، وأن ادرك فى هذه اللحظة ان شيئا ما ينكسر بداخله ، او بتعبير ادق ، على حد قوله فيما بعد ، شيئا كالتفكك ، كلانفصام (تصورت الحبل) ، وبينما كان يبتعد فى الردهة بجوار المفتش شعر خلفه وكأن الهواء يغلق كل شىء من خلفه عقب كل خطوة ، يتجمد فى شىء أنشف من الحجر ، أكثر عتامة من الصمت : ثم خرج ، وجد نفسه فى الخارج ، وجد النور ، الميدان ، الريح الخالد ، فوقف برهة ، تردد ، كالسكران ، لكن فقد اتزانه (وقد قال لى ايضا أنه شعر بشىء اشبه مايكون بالشخص المبتور الذى ينهض ، ويحاول السير لأول مرة) ، فاغمض عينيه لا ليحمى نفسه من الضوء ، ومن الاتربة التى كانت الريح تواصل اثارتها بلا هدف فى شكل سحابات ينقلها من مكان لآخر من الساحة ، لكن ليحاول كسر أو كحت الغلالة الرفيعة التى خيل اليه انها تغلف وجهه ، مثل طبقة من الشمع منفصلة عن الهواء الخارجى الذى اصبح بالنسبة له كالوسط ، كالمجال الغريب الذى لم يدخله ابدا من قبل ، وعندئذ ظل واقفا دون ان يقرر مواصلة السير ، امام مجموعة النسوة بشعرهن الأشعث والاطفال المنزرعين كالمعتاد تحت الرواق ، الى أن عاد المفتش ادراجه واخذه من ذراعه وزج به فى السيارة ، والآن كانوا ثلاثتهم واقفين ، لايتحدثون والمفتش - كان قد خلع قبعته : فبدى على جمجمته الصلعاء الغريبة البياض ، بضعة شعيرات نادرة مازالت تحمل آثار المشط الذى مر عليها بعناية ، وحيثما كان جلد القبعة يحز جبهته ، كانت توجد منطقة وردية اللون تخط جبهته - يحاول اعادة تغليف الصندوق المعدنى الصغير ارتجالا فى نفس ورق الجرائد الذى كان يجيط به ، ثم أمسك بدوبارة ، وراح يفك العقدة (بينما مازال القس ومونتيس يرقبانه ، ينظران فى صمت الى الاصابع وهى تتلمس ، شد ، تتوتر ، حتى اصابها اليأس ، فأحالت الدوبارة الى كومة متداخلة ، ودفستها فى الجيب حيث تدلى جزء منها

بطول رجل البنطلون ، فحرك مونتيس يده ، واصبعه متجه ناحية الجيب ، دون ان ينبث بكلمة ، والمفتش ينظر اليه بدورة باندهاش هذه المرة ، شبه مهان ، مغتاظ ، ثم احاد ببصره ، ودفس الدوبارة فى جيبه) وبعد ذلك ، دون التوقف لحظة ، وكأن كل حركة تثير الحركة التالية مباشرة أو كان نهاية كل حركة تعد فى نفس الوقت بداية الحركة التى تليها ، فأخذ الصندوق الصغير ووضعه تحت ابطه ، وظل نظر مونتيس ثانيا هناك ، ينظر بغباء الى المنطقة المحيطة بالابط المحددة باللون الرمادى (كمستودع مالح ، مثل تلك التعاريج التى يتركها البحر على الرمال) ، وتحدد بقعة فى نسيج البدلة ، والفتاة ذات لباس البحر تستمر فى الابتسام ، وقد وقفت على رأسها فوق الورق المكرمش الممزق ، وبجوارها مباشرة ، لكن فى الوضع المعتدل هذه المرة ، شىء ما غير واضح المعالم ، اشبه بالفسيفساء مكون من عدة وجوه تحت اعلام داكنة وراح يقرأ آليا اجزاء من كلمات واحرف لامعنى لها ، وعندئذ شعر بشىء مايهزه ، اشبه بالضحك بينما راحت صور الجريدة ، واسورة قميص رجل البوليس ، وطيف رجل البوليس نفسه تتداخل ، لكنه لم يتحرك ، لم يرفع يداه تجاه عينيه ، ظل (الآن لم تعد البقع مهزوزة ، غير واضحة او متقزحة باللون الفضى) الى شكل المفتش والقسيس وهما يتداخلان ، يختلطان ، وادرك انهما يتحدثان . لكنه لم يتبين الحوار ، واستمر الحال لحظة ، ثم انقسمت البقعة السوداء الوحيدة التى تكونت من تداخل الرجلين ، تباعد الجزآن وان ظلا مترابطين بخيط رفيع ، راح يزداد نحافة الى ان انقطع (مثلما يحدث فى الافلام التسجيبة حيث الخلايا تتكاثر ، تتضاعف عبر انقساماتها الذاتية) ، وراح طيف رجل البوليس يبتعد الآن اسرع واسرع ، وعندئذ تحرك (مونتيس) ، بدأ السير لكنه سرعان ماتوقف ، اذ ان المفتش (كان يراه الآن بوضوح) كان يقف فى مواجهته فجأة بعد أن قام بنصف استدارة سريعة ، وتوقف ، ليقول بصوت سخيف ، متحرش : « الى اين ؟ » .

لم يجب ، واكتفى بالنظر الى رجل البوليس مستفسرا (كنت اتخيله ، اراه : اشبه مايكون بواحد من هذه الكلاب التى تتابع المارةفى الطريق وتقف كلما توقف ، تنظر اليه بعينين خائفتين ، مضطربين متوسلتين بينما يلوح لها بيده ليطردها) ، وظلا هكذا فترة ما الى أن قال المفتش :

« هل انت مصر ليقحم اسمك فى هذا الموضوع ؟ »

ولاحظ انه لم يعد يخاطبه الآن بصيغة التعالى ، ربما لوجود القسيس . وهذه المرة حاول ، ولعله نجح فى الكلام ، وأن كان هو ، على حد قوله لم يتبين ماالذى كان يقوله : أو ربما لم يتحدث حقيقة ، ومع ذلك فقد بدأ المفتش وكأنه ادرك مايقوله ، لان تعبير وجهه تغير : بدأ (ان تظاهر ، أو تظاهر بأنه يتظاهر بأنه) يفكر ، فاخفض نظره ، راح ينظر الى طرف حذائه ، مقطبا حاجبيه ، ثم رفع عينيه

قائلا : « لكن بأى معنى ؟ » ثم قال فور ذلك مباشرة : انك لست من الاقارب من أى درجة كانت ، اليس كذلك ؟ » .

وعندئذ رأى (المفتش) على وجهه ، وفى عينيه اللتين تنظران اليه ، شيئا حقيقيا لايحتمل . لأنه لم يتحرك وقال بسرعة شديدة : « يمكنك محاولة كتابة طلب ، ربما سمحوا لك برؤيتهما . فلا يوجد مايمنع » وادار ظهره الآن تماما وانصرف .

ولم يشعر مونتيس بيد القسيس وهى توضع على ذراعه الا بعد فترة من الزمن ، ورأى بجواره كومة من اللحم اللين ، الرمادى ، يبدو وكأنه يسيل من حول الانف والفم المتعرج الثنايا المتراخى والذى تعلوه بعض الشعيرات الرمادية . وقال لى انه ظل فترة ما قبل ان يدرك ان ما يراه وجه (مثل تلك الصورة التى نراها وقد تم تكبيرها بشكل مبالغ فيه لأشياء عادية ـ مثل لبابة الخبز ، أو مسطح قطعة سكر ـ مما يستغرق وقتا لتبينها) ، كان يتبين التجاعيد بوضوح ، والذقن التى مضى عليها يومان ، الجلد المتراخية ، مثلما رأى فتاة الغلاف منذ لحظة ، وصورة المظاهرات ، وبقعة العرق تحت كم البدلة ، دون ان يتبعها أى شىء آخر (ولا اى مفهوم ، ولا اى فكرة ، ولا أى خاطر) : لم يشعر الا بمجرد ادراك للأشكال ، للأشياء (الشعر الاعلام ، السيقان الطويلة العارية ، النسيج المتسخ) ، بحيث أنه لم يفكر حتى قائلا : قسيس مهمل ، عجوز متعب » ، ولاحتى حينما آدرك تعبير الوجه ، لم يفكر فى كلمة : « حرج » أو « قلة صبر » أو « لوم » ، أو « شفقة » أو « ضيق » : لاشىء ايضا سوى طرف الجفن المتجعد بلونه الوردى الداكن المتراخى ، يتدلى تحت عين رطبة ، بحدقتها فاتحة الزرقة ، وكأنها مجربة بلا لون ، غارقة ، متحللة ، وسمع نفسه يقول فجأة : « لا لاشكرا » وفى نفس اللحظة التى كان يتراجع فيها الى الوراء ، ويسحب ذراعه من تحت اليد ، كان مازال يكرر : « لا ، اشكرك ... » ومازال يسمع صوته وهو يكرر كلمات الرفض وكأنها خارج عنه ، دون ان يعنى ذلك ، ينظر الى الفم المتجعد وهو يفتح ليقول : « ان استطعت ان » وهو مستمر (لابشفتيه ، ولسان فحسب ، لكن على مابداله بكل جسده ، بكل كيانه) فى القول : « لا لا لا لا لا لا لا .. » ، ثم أدرك انه يسىء ... ، ويتجه بدوره الى الباب ، دون حتى ان ينتظر لينهى الآخر الجملة التى بدأها ، مفكرا : « يجب على الاقل ان اعتذر » وعندئذ ، او فى نفس اللحظة اضاف : « لماذا ؟ » ولم يستدر حينما اجتاز الباب مثلما لم يستدر قبل ذلك بقليل حينما اجتاز لثانى وآخر مرة باب غرفة روز ، وأن لم يكن بحاجة ليستدير ليستمر فى رؤيته ، واقفا فى ردائه الاسود (فقد كان يرى ايضا ياقته البالية وصف الازرار الصغيرة لجلبات الكهنوت والمغطاة بنسيج بالى هو أيضا ، والنسيج البالى ، اللامع عند الخياطات) ، وهو ينظر اليه بينما كان يجتاز الباب ، وفتح فمه

مرة اخرى قائلا بسرعة : « صلى » ، ثم (ولم يفكر مونتيس لكنه ايقن : وجود بلادة ما . والآن يضعونها هنا ايضا لا تغلق الباب ، الـ ...) الباب اغلق خلفه واصبح وحيدا .

اثقل عليه التعب بشكل خاص ربما كان هناك شيء آخر ، لكنه لم يدركه على اى حال حكى لى انه كان قد سار منتصف طول الكنيسة حينما ادرك فجأة انه غير قادر على أن يخطو خطوة اخرى فجلس . ظل هناك لفترةوهو شبه فاقد تماما لأى وعى او ادراك الا أنه جالس ، وانه لم يعد مجبرا على الوقوف ، وفتح عينيه ، والاستمتاع ، وبالتالى على التحدث وبعد فترة من الوقت تذكر القسيس ، وخشى ان يخرج من مخزن الأمتعة المقدسة ويجده جالسا ، فجاهد ليقف ووصل الى احدى المقصورات الجانبية وجلس ثانية .

قال لى ان الجو كان رطبا مظلما وهادئا وان الرطوبة والظلام والهدوء كانوا يكفونه حاليا . لم يفكر فى كونه يجلس فى كنيسة : لم يدرك الا ان الجو رطبا ، مظلما وهادئا ، وبالتالى شعر بالراحة . كان يمكنه الاكتفاء بأن يظل جالسا هكذا ، بلا حراك ، محدقا امامه ، وهنا ايضا لم يمكنه ان يتذكر كم من الوقت مضى ، بما ان الوقت هنا على حد قوله ، لاحساب له ، وتذكر فقط تدريجيا (مثلما تعتاد العين تدريجيا على الظلام ، لكن بعد فترة طويلة نسبيا ، لأن المسألة لم تكن مسألة ضوء ، وردود فعل جسدية) وبدأ يستعيد قدرته على الاحساس ، وتبين شيئا آخر سوى الصمت ، والهدوء ، تبين الصور المطبوعة على حدقته ، وراح يقرأ كلمته « شكرا » المتكررة باحرف مذهبة اسفل الحائط ، فى مواجهته ، كنوع من النقش المتواصل : شكرا شكرا شكرا ، فى عدة صفوف على قطع من الرخام الابيض كل قطعة فى حجم كراسة التلاميذ ، تتلامس ومثبته فى الزوايا بمسامير مذهبة الرأس ، ثم رأى القديس نفسه واقفا على قاعدة من الرخام الصناعى : تمثال من الجبس المدهون ، اقل من الحجم الطبيعى بقليل ، يمثل شخصا بشعر قصير ، يرتدى درع المحاربين الرومان بعضلات مصطنعة عند البطن ، مفضض ، وجونلة ملونة من سيور من الجلد ، وحرملة طويلة لونها وردى قديم تتدلى خلف ظهره ، ينتعل صندلا من الجلد ، ممسكا صليبا صغيرا بيده على صدره بين النتوئين البارزتين لصدر الدرع وفى اليد الاخرى غضن الشهداء . وثلاث آنية ظهور بها تشكيلة من زهور اللؤلؤ الكبيرة المصنوعة من المعدن المطلى مرصوصة حول قدمى التمثال ولمبة كهربائية صغيرة تلمع داخل آنية صغيرة من الزجاج الاحمر كاللمبة السهارى المضاءة والمحافظة عليها تلقائيا فلم يكن هناك من يهتم بها وانما قد وضعوا الفيشة فى التيار العام للمدينة مثلما وضعت الزهور المعدنية مرة واحدة وانتهى امرها ، لا تتغير وصلبة بالوانها الصارخة المطلية بالمينا ، وان كانت انطفأت قليلا بفعل طبقة رقيقة من التراب

الذى يعلوها (لم تكن طبقة : مجرد رشة ، مثلما يحدث فى تلك المنازل القديمة التى ليست مهجورة وانما التى يقومون بتنظيفها كل اسبوعين ، نظر لقلة الخدم ، ولا يتم التنظيف بشكل دقيق ، واحيانا يتّم كل ثلاثة اسابيع فحسب ، فقد قال لى انه كانت توجد باقة من الورد الطبيعى لكنا تحولت الى تلك الحالة المحنطة الجافة كالكرتون تحولت الى تلك المادة الهشة داكنة اللون كلية والتى لاتصل اليها النباتات الا عند درجة التحلل القصوى ، وكانت الباقة ايضا مغطاة بتلك الطبقة النحيلة من الرماد الذى يبدو انه كان يتراكم هنا ببطء ، وكأنه لا يصل الى هنا عبر الضوء المنعكس من الوان الزخارف الزجاجية وانما الضوء الرمادى المتساقط ، الذى يعلوه التراب ، والميت ، المنبعث من الفانوس المعلق فى سقف القبة ، فيضفى ظلالا شاحبة ، رمادية ، على الثريتين الضخمتين المدليتين ، الشبيهتين بما يمكن ان نراها فى صالون ما ، وأن لم يكن هذا المكان بصالون بالمعنى المفهوم ، رغم ما به من اشياء مذهبة ، واعمدة ورخام احمر واسود ،وافريز : كان اشبه ما يكون بالجو الجنائزى الباذخ القبيح ، ومازال هو (مونتيس) هنا ، بلا حراك على مقعده ، يجسد صورة البؤس اكثر من اى وقت مضى ، لكن بلا دموع ، ينظر بعين باردة جافة ، الى الديكور القذر الفخم ، وكأنه يراه لأول مرة ، على حد قوله ، وكأنه لم يدخل فى مثل هذا المكان من قبل فى حياته وعندئذ دخلت امرأة وكان التراب الذى يعلو البلاط غير المكنوس جيدا يصر تحت نعليها مع كل خطوة : لكنه لم يستن ، واكتفى بتسجيل ذلك ، مثل بقية الاشياء كالرخام ، والنجف ، والتراب ، حينما دخلت محيط رؤيته : كانت شابة ، تضع اشاربا من الدانتيلا السوداء على شعرها ، شفتاها شديدة الزواق ، باللون الاحمر القانى ، الدسم الى حدّ ما ، اقتربت من صندوق الصدقات ، القت به قطعة معدنية ، اخذت شمعة اشعلتها ، ركعت على البلاط ، يداها متشابكتان ، وظلت هناك ، فى نفس ثبات التمثالين الموضوعين على جانبى المذبح ، قديستان تلويان ايديهما فى دوامة طرحتيهما المتحجرة تحت الكفن الدقيق جدا الذى يعلوه التراب ، وجهيهما الشهوانيان يعلوهما الزواق والدموع المنسابة المرسومة ايضا بلا عاطفة ، متهالكتان ، غارقتان فى نار المعاناة الخالدة فى النشوة الخالدة)

- ١٥ -

ثم وجد نفسه فى الخارج مرة ثانية ، لم يدرك الا بعد فترة ، على حد قوله انه كان يتحرك ، دون ان يكون عقله بحاجة الى اعطاء الأوامر ، ويقرر ، ولاحتى لتحديد اى اتجاه يسلك ، بحيث انه لم يدرك الا بعد فترة طويلة ايضا انه مازال ممسكا بطاقيته (كان قد خلعها وهو يدخل الكنيسة مع رجل البوليس) فارتداها .

لم يكن لديه اية فكرة عن الطقس ولا عن الساعة ومنذ ليلة امس لم يكن اكل شيئا ، ومع ذلك لم يكن يشعر بأى حاجة للطعام ، وبينما كان يجتاز ردهة الفندق ، شم رائحة الطعام ، وسمع اصوات الأوانى وهى تخبط ، ففكر : « اذن فلسنا الا ظهرا ، وهم ليسوا الاعند وجبة الغذاء .. » ولكنه لم يتوقف ، ولم تكن لديه اية فكرة للدخول فى غرفة الطعام مثلما لم يدرك بخلده ان يخبط الفتاة البدينة وذراعاها محملان بالاطباق ، مرتبكة الى حد ما ، مذهولة ، شديدة الحمرة تخرج من المطبخ وهى تفكر فقط : « أذن استبدلوها انها الجديدة .. » ، ولم تضف شيئا ، اذ كانت قد بدأت تصعد السلم المؤدى الى الغرف ، تصعد الدرجات الخشبية الواحدة تلو الأخرى ، ثم قال لى وهو فى نفس هذه الحالة الثانية ، شبه الآلية ، كأنه بعيد عن أى انفعال ، بحيث انه لم يشعر لا بالغضب أو بالاهانة ، بل ولا حتى بأية مفاجأة حينما وجد نفسه وجها لوجه امام موريس فى الردهة وهو يحاول ان يسد عليه الطريق ، فاكتفى بالنظر اليه بنفس هذه العين التى تكتفى بالنظر ، والتسجيل (قائلا فى نفسه : « من المحال ان يكون ثملا فى مثل هذه الساعة . لكن ماذا ؟ ») ، وسجل النظرة المتوسلة ، التعبير المتوسل الصوت المتوسل المحزن ، وفى نفس الوقت سجل الحديث ، الكلمات : « اسمع يجب .. انا .. » ، كان كل شىء اشبه بشذرات الواقع ـ وجوه ، حركات ، صوت ،كالاشياء التى ترى ، خطفا من خلال سيارة او ترام ، او قطار ، او اية مركبة تسير ، وتختفى حتى قبل ان تنتهى الحركة او الجملة ، لأنه لم يتوقف ، واستمر يسير بمحاذاة الردهة ، ربما تأتى بعد لحظة توقف عابرة غير ملحوظة ، اشبه بالتردد ، لكنها محركة اساسا ـ وهو رد الفعل الوحيد فى مواجهة الطرق المغلقة ، او امام عقبة تعترض الطريق ـ بل وربما لم تكن حتى كذلك ، فبينما كان يستمر فى مواصلة سيره رأه يتباعد (عندما خرج اختفى من رؤيته ومن ادراكه بالصورة ، كما ان نظره ايضا لم يتجه يمينا أو شمالا وانما ظل ينظر امامه بعناد ،

وقد لمح فقط خيال شيء يبتعد سريعا ، لصورة متواضعة ، مثل الصوت الذى كان يصل الآن من خلفه ، يصرخ يحتج بلطف . بتواضع : « لا ! أسمع : لا ، لست انا ! أقسم لك ، لست انا الا هذا ، لم .. ») ثم لاشيء لأنه الآن كان قد اغلق باب غرفته ، بلا عنف بلا عجلة ليس فى وجه شخص ما لكن مثلما نغلق الباب خلفنا ، لم يعد هناك اى شيء لمدة بضعة لحظات اخرى ، لم يكن صوت ولا حتى ضوضاء ، لكن - وتلك لحظة ، سجلها ، لا اكثر من ذلك - شيء: اشبه بالتنفس ، بوجود صامت ، متواضع متواسل ، بائس ، ثم نفس هذا التواجد لم يعد له وجود ، وهو (مونتيس) ، مازال محمى ، او تحت تأثير ما ، أو نهشا لحالة من عدم الشعور ، غارق فى هذا التأثير الغريب اللا واقعى جالس على حافة الفراش ، ممسكا فى يده بكوب الماء الذى ملأه توا للمرة الثانية من صنبور الحوض وممسكا باليد الاخرى بقطعة بسكويته ، بسكويتة لم تؤكل منها إلا قضمة واحدة ، مقضومة فى شكل هلال مثل قرقضة الفأر ، وفى فمه خليط العجينة اللزجة التى كان يمضغها دون ان يتمكن من ابتلاعها (او ربما لم يفكر فى ذلك) ، ثم لاشك انه نام ، كيفما كان هنا ، الكوكب والبسكويته فى يده ، لان كل ماتذكره فيما بعد هو ذلك الشعور بالبلل وبالبرودة بطول ساقيه ، ثم السقف ونقط الذباب السوداء وهى تحلق حول اللمبة بلا هوادة ، ثم جلس ثانية ، ينظر بغباء الى القماش المبلل ، الى البقعة الداكنة متعرجة الاطراف على فخد بنطلونه وكانت الكوب الآن خالية ويده مازالت ممسكة بها بينما اليد الاخرى لم تترك البسكويته التى قضم منها ، وادرك الآن أن الشمس قد مالت وأصبحت تخبط حافة النافذة ، وتنعكس على الحائط المقابل : اولا بخط افتح قليلا واطراف باهتة ، ثم حد ذهبى ، ثم مثلث نحيل يميل الى الطول ، يتأكد ويمتد بشكل غير محسوس فى فترة ما بعد الظهر الخاوية البطيئة (وقد قال لى انه كان يمكنه الشعور بالزمن ، بالبداية الخالدة ، والتحول الخالد للمادة الساكنة ، غير الحساسة ، وهى تدور الى مالا نهاية ، تنتقل بذلك البطء المذهل الذى لايتزحزح ، وكأنها وعد بعذاب بطيء ، باختصار بطيء ، وفى مكان ما فى ذلك الزمن المضيء شيء ما اشبه بالبقعه ، شيء ما يشوبه الغموض ، شيء اسود ، شيء لايمكن تغييره ، كان ذهنه يتخبط فيه : يد تعود فى حركة آلية لتحاول ازاحة شيء ، ثم تتذكر ، تفكر (اليد) : « حقا نسيت » فتسقط ، وتعيد الكرة فى اللحظة التالية . والآن كان واقفا امام المرآة الموجودة فوق الحوض يحلق ذقنه ، او على الاقل كان يجاهد ليمرر مكنة الحلاقة ارتجالا على خديه المغطيين بالصابون دون ان يهتم بتغيير الموسى الى ان رأى الوجه الذى ينعكس امامه فى المرآة بدأ يتداخل ، تماما مثلما حدث صباحا مع الصورة المتداخلة للقسيس ورجل البوليس ، وعندئذ لم تعد الا بقعة سائله هى التى يقف امامها ، فانتظر ، ممسكا بمكنة الحلاقة فى

يده ، مفكرا بيأس : « لن افلح ابدا ، مستحيل لن استطيع ابدا ، انا ... »

ثم نجح فى اتمام حلاقته . فك المكنه ، اخرج الموسى ، مسحها وضعها فى المكنه ثانية ، وقال لى انه دائما فيما يتعلق به ، كان يبدو وكأنه ينظر الى تحركاته من الخارج ، وكأنه منفصل ، يرى نفسه هنا ، بعد فترة طويلة من وضع الفرشاة ومكنة الحلاقة على المائدة الصغيرة ومازال فى مواجهة المرآة ، مقطب الحاجين ، وكأنه يقوم بمجهود عنيف ليفكر ، ليتذكر مالذى كان يود عمله ، مالذى بدأ يعمله حينما فكر اولا ان يحلق ، ثم فى اللحظة التالية (رأى نفسه) يسحب من تحت الدولاب نفس الشنطة مخدوشة الجلد التى اخرج منها موريس وهو منتصر منذ ثلاثة ايام الصندوق الصغير ، ففتحها ، اخرج منها الان بنطلونا قديما مطويا بعناية وراح يتفحصه ، يقلبه ويعيد تقليبه ، ينظر بعين بائسة الى حافته المتآكله ، والى حجره شبه الشفاف ، وقرر اخيرا ، فقام وفك البنطلون الذى كان يرتديه ، وفرده على ظهر المقعد الوحيد ، وارتدى الآخر ، ثم نقل محتويات الجيوب ، وبعد فترة وكأنه لم تكن هناك مرحلة انتقالية ، وكأن الشوارع ، والشمس ، والظل ، لم تكن الا مجرد ردهة عليه ان يعبرها ، وفى لحظة فتح الباب اغلقه ليمر من مكان الى آخر وظل ينظر ، ببلاهة ، وكأنه مبهور بمختلف الألوان الصفراء ، والقطع اللامعة ، وفوج الدراجات المعلقة فى الرواق بينما كان جزء آخر منه يتفاوض مع الشخص ، ثم (الجزء الثانى من نفسه الذى سجل الجواب قادة ، اوصله) راح يعبر الردهات ، والسلالم ذات الجدران المدهونة بلون رمادى معدنى واحد ، مثل تلك الغرفة التى جلس ينتظر بها ، جالسا على اريكة (وهنا ايضا خيل الىَّ اننى اراه ، بذلك البنطلون الناحل جدا ، الذى تردد فترة قبل ان يقرر ارتدائه على حد اعترافه ، وهيئته ، وشكله المسكين ، الشبيه بكل الذين اعتادوا ان ينتظروا هنا بحيث ان عساكر الشرطة والموظفين فى مأمورية البوليس الذين يروحون ويجيئون ـ وقد تذكر فيما بعد ايضا : ان ضوضاء الخطوات ، والكعوب الصلبة على الخشب العادى ، بلا شمع ، الخشب المائل الى الرمادى ، والاسود فى الاماكن التى لم تجف ، مع ذلك الصوت الرنان ، بهذه القوة وهذه الرائحة المميزة للخشب المكنوس والمرشوش بالماء لم يلتفتوا حتى لينظروا اليه) . ثم ظهر وجه المفتش ، نفس الشخص الذى كان قد اوصله عند القسيس ، نفس الصلعة العارية ، شديدة البياض ، العارية هذه المرة لا لأن صاحبها كان فى زيارة الآن او فى مكان ما حتى رجال البوليس انفسهم يخلعون فيه قبعاتهم . لكنه كان فى عقر داره ، اى أنه كان جالسا خلف مائدة من الخشب المدهون بالاسود فى مكتب يوجد به رجلان آخران بثياب رثة يطبع احدهما على الآلة الكاتبة ويجلسان خلف مائدتين صغيرتين سوداوتين : ثم (ولاشك انه بين المكانين كانت هناك مرة اخرى الشوارع والشمس ، والريح ـ لكنه لم يرها ، ولم

يشعر بها ، على اى حال هو لم يذكرها) وجد نفسه فى مكتب آخر ، جدرانه الآن مدهونة باللون السمنى ، ولم تكن الارضية من الخشب الخشن ، الذى يكنسونه ويرشونه كل اسبوع ، لكنها كانت من اللينوليوم أو شىء من هذا القبيل ، من نوعيات الكاوتش التى تكتم صوت الاقدام . والمكان بصورة اجمالية ـ وان كان يتصدره ذلك الجو المميز والذى يصعب التعبير عنه والسائد فى المبانى الادارية ـ كان ناصعا ، نظيفا ، متألقا ، مثل تلك المرأة الجالسة خلف المكتب (ليست مائدة سوداء : وانما قطعة موبليا من الخشب الفاتح ، المدهون بالاستر ، وامامها حافظة عصرية ، ومفكرة عصرية وسلة مراسلات عصرية بل وحتى باقة زهور صغيرة متواضعة فى الركن . وكانت عصرية الشكل ايضا ، متألقة رغم شعرها الذى بدأ يدب فيه الشيب لكنه غير مصبوغ ، من باب الاناقة شعرها قصير ، مموج ، وشفتاهما يعلوهما اللون الاحمر الخفيف المحتشم ، تبتسم بطريقة مرضية بشوشة بطريقة ناظرة المدرسة التى تستقبل اهالى الطلبة او حتى بطريقة مريرة الاستتقبال فى احد الفنادق الفخمة والمؤهلة من احد المعاهد العصرية للفندقة الحديثة ، ربما كانت سويسرية ، تتفحصه دون ان تكف عن الابتسام بنفس الطريقة البشوشة ، المتفاهمة ، بينما كان يحاول ان يشرح لها سبب مجيئه الى هنا ، ويتلعثم ، يتهته ، وهو ينظر الى اظافرها المشذبة تعبث بأحد هذه الاقلام الضخمة الخاصة بالمكاتب الى ان سمع صوتها وهى تقول :

« أنى آسفة لكنه مستحيل وان كانت هناك اية قرابة مع هاتين الطفلتين ..

ـ لكننى سأر ..

ـ أؤكد لك انهما ستكونان فى احسن حال ، وربما حتى ... »

ثم ترددت وراحت تنظر الى جاكتته الناحلة وقميصه بياقته الناحلة ، ورباط عنقه الناحل ايضا ، وبعد لحظة جمعت شجاعتها لتقول بإبتسامة مهذبة : « على الاقل افضل من الوسط الذى تواجدنا فيه حتى الآن .. » ثم كف عن رؤيتها ، هى وتموجاتها ، وبلوزاتها اللامعة ، بل وحتى المكان نفسه ، والمكتب النموذجى ، والتنظيم النموذجى ، والعمارة النموذجية ، الجديدة ، وابوابها اللامعة مثل خشب الاكاجو ، وجدرانها المكسية بالورق السمنى ، وهيئتها الرديئة المتماثلة ، ومكاتبها المتماثلة التى تجلس اليها سيدات نموذجيات ربما تم تصنيعهن وفق النمط النموذجى لتلك السيدة ولا شك انه ظل هكذا يسرح فى تخيلاته (بعيدا ، او ربما فى اللامكان ، ضائعا فى انسياق الزمن البطىء ، وسط هذا الفراغ ، وذلك العدم ، وهذه المساحة الشاسعة التى تلتهمها أشعة الشمس الزاحفة ملليمترا ملليمترا ، كالموت البطى ، والمعاناة البطيئة شديدة البطء ، لكنها مطلقة بلا حدود وكأنها السلام نفسه ، وبعد فترة ما ، من المؤكد أنها فترة طويلة لشخص يسأل عن حاجة فى مكتب الشئون العامة ، أذ عندما رأها ثانية ،

(المرأة) كانت تنتفض : لم تعد الابتسامة هى نفسها ، وان كانت الابتسامة هنا ألية مثلما تعلمتها فى المدرسة السويسرية لتعليم المشرفات الاجتماعيات النموذجيات ، الآن ، كان بها شىء من الافتعال ، شىء من الاجبار ، الضيق ، وفى نفس الوقت لاحظ انها تنظر الى الساعة ، حركة خاطفة ، وخفية الى معصمها حيث تلمع ساعة صغيرة من الذهب ، بحركة رجولية ، وعندئذ فحسب ادرك ان كل حركاتها كانت كحركات الرجال حتى حينما كانت ترفع يدها آليا ، وخنصرهاالصغير متباعد ، لترتب من وضع تموجات شعرها ؛ كما انها قاطعته بلهجة رجولية ، غير صبورة ، حادة رغم الابتسامة المطبوعة وهى تقول : « تتبناهما ؟ » .

فأضاف هو بسرعة : « نعم هو ذلك ، هاهو : الـ .. اود ان .. » ثم توقف ، مال برأسه ليرى مالذى كانت تنظر اليه (بقعة ؟ شق ؟) ما الذى كانت تحدق فيه تلك النظرة الباردة غير المنفعلة التى كانت تجرى عملية تقويم للمرة الثانية ، يستعرض ثيابه الناحلة بالتفصيل ، ووجهه الغريب الشبيه بوجود المهرجين او بوجوه من يقومون بأدوار الخونة فى المسرحيات الهزلية ، بتلك النظرة الأثمة المتفحمة تحت حاجبين متفحمين ، وحينما رفع رأسه لم ترفع هى حتى منكبيها ، وهى تقول (بنفس الصوت العطوف ، الناعم الذى يشوبه الاحتقار) : « اعتقد انك لاتجهل ان القانون يفرض وجود عدد من الضمانات ، وذلك لمصلحة الطفلتين ، وأول هذه الضمانات من الشخص الذى يتطلب التبنى .. »)

هو : « ش ؟ » وما كاد ينطق بها حتى سمع الرد، لهجة الصوت المنتصر حاليا ، لم يكن السن قبيحا الى ذلك الحد ، لكنها تعمدت ذلك ، بشكل متحذلق لتقول الرقم ببساطة بهدوء ، : اربعين عاما ، وفى نفس اللحظة التى كان يفكر فيها : « لكنى لم ابلغ الا الخامسة والثلاثون . اذن خمسة اعوام . لا » لعله أو لعل الجزء الذى كان يعمل اكثر من الآخر فى عقله فكر واعطى الأمر ، ابلغ شفتيه ما عثر عليه كحل ، ولعله قال ، او ان لم يكن قد قاله فربما ادركت انه سيقوله وذلك تم عبر شفتى الرجل النحيلتين الورديتين ، اللتين تعلوان ذقن الرجل :« ان اعهد لك بهما ؟ »

والآن ، كانت الابستامة قد اختفت تماما ، راحت تتفحصه لحظة ، بوجه بارد قاس ، يعلوه تعبير القرف ، والغضب وشىء من الشفقة ، ثم اتسع فمها ثانية بابستامة واضحة الإفتعال ، متشنجة ولاحظ التجاعيد المرتسمة حوله فى شكل مروحة اعلى واسفل الشفتين ، كالنسيج المكرمش ،وقال فى نفسه : « عجوزتان انها عجوزة ، انها .. » ثم تبين الكلمات التى كان ينطقها الفم بابتسامة مشدودة محدقة : » ... « اعزب على ما فهمت » وان كبرى الفتاتين بلغت الثالثة عشرة تقريبا ومثلما يحدث عادة عن الاطفال الذين يجرى فى عروقهم دم غجرى ، فقد

نضجت تقريبا ، لعلك تدرك ان .. » وكان هو يفكر : « ياساتر يارب ، ياساتر يارب ، اعوذ بالله ... » لكنه لم يتحرك ، وان كانت هى قد بدأت ترتب الاوراق التى على مكتبها بانشغال واضح دون أن تلتفت اليه وكأنه لم يتواجد امامها من قبل ، ولم يجلس فى المقعد الذى اشارت اليه حينما دخل ، نظرت الى الساعة التى حول معصمها مرة او مرتين ، لكن دون ان ترفع نظراتها اليه ، وحينما راح يتحدث رفعت رأسها بشكل مندهش ، وكأنها مندهشة لاستمرار وجوده امامها ، فقطبت حاجبيها بضيق واضح ، بحيث راح يتهته قائلا : « كنت اود ، اعنى ، ارغب .. » ثم صرف النظر ، بدأ يتململ فى مقعده ، انحنى الى الامام ليخرج حافظته ، ونجح فى ان يقول : « لا احب ان ينقصهما شىء .. » فقالت : « هل تريد ان تتبرع ؟ » فقال : نعم . اتبرع . لهما . لكى لاينقصها شد .. » فقالت : « ان التبرعات التى نتلقاها تستخدم على اكمل وجه لصالح جميع الاطفال الذين ... » فقال : تودين القول ان .. انهما .. » ، فقالت : « ستستفيدان مثلهما مثل الآخرين ، مثلما ستستفدين من التبرعات التى يقدمها اشخاص آخرون ... » . فقال : « ثم رآها تنظر ثانية الى معصمها ، مع ذلك فقد ظل باقيا ، دون ان يمكنه التحرك ، بوجهه المجعد المأساوى الذى يزيد المجهودمن تجعده ، وكأنه يجاهد يائسا لحل مشكلةوانه طالما ظل فى هذا المقعد ، فى هذا المكتب ، كانت هناك امامه فرصة للوصول الى الحل او على الاقل الى حل ما ، او ربما لم يعد يحاول فى اى شىء ، ولا يتمنى اى شىء ، وقد نسى المرأة ، مثلما نسى الوقت ، بل ولم يدرك مدى الوقت الذى امضاه منتظرا فى قسم البوليس ، ثم هنا ، قبل أن تستقبله ، ربما ظل جالسا لانه موجود بالفعل ولأنه غير قادر على مواجهة اللحظة التالية ، التى سيغلق فيها الباب الاخير الباقى امامه ، فنهضت ، ربتت على بلوزتها اللامعة ، رآها فبدا وكأنه استيقظ اخيرا ، فنهض ايضا وهو يقول : « نعم بكل تأكيد . انا نسيت . نعم لو سمحت هل يمكننى معرفة كم الساعة الآن ؟ »

كان يشعر انه يريد ان يأكل . قال لى انه دخل الى اول مطعم صادفه ، كان خاليا (لم تكن الساعة السابعة تماما) طلب وجبة اليوم دون ان ينظر الى قائمة الطعام ، وعلى الرغم من انه لم يشعر بأى جوع قبل ان يجلس ، وجد نفسه يلتهم محتويات الاطباق التى كان الجرسون يضعها امامه ، دون ان يشعر بأى طعم لكنه كان يأكل بشراهة نهمة ، بوحشية ، الى ان انتهى كل شىء ، انحسر ولم يكن امامه سوى لحظات ليجرى الى دورة المياة ينحنى ويتقيأ ، دفع ثمن الوجبة التى تقيئها الطعام الذى ماكاد يدخل معدته ، دون ان يهضم الا ليخرج من جسده وكأنه على حد قوله وجد ان جسده غير جدير باستقباله ، وأبى ان يظل بداخله ، وذلك هو التعبير الذى استخدمه حينما قص على ذلك ، لكنه لم يتضايق فقد شعر بتحسن بعد ذلك ، كان منهكا لكن افضل من ذى قبل : فقد أفرغ ما فى

جوفه بمعنى الكلمة ، كأنه لم يتبق منه الآن سوى مجرد ظرف لايحوى شيئا بداخله ، وكان ذلك كان نوعا من انواع الشعور بالسلام ، بالهدوء ، وقد فكر ان الامر ربما يكون عمليا اذا ما استطاع المرء أن يتقيأ كل شىء بهذه البساطة ، ويتقيأ نفسه ، يتخلص منها يطردها ، كطعام غير مهضوم ، ثم قال ، لكنه بقى عليه ان يسحب ذلك الجسد الغبى دون ان يعرف ما يفعله به ، ولا اين يضعه . ووصف لى ذلك الشعور من اضطرارد حمل هيكل مربك طاغى - فقد كان يشعر بثقله ، بحمله - وخيل الى اننى اراد هو او بالتحديد هيكله وهو واقف فى غرفة موريس (وقد حدث ذلك ثانى يوم ، على مافهمت وهذه المرة لم تكن المحاولة من جانب موريس ، اعنى انه - او الهيكل - هو الذى راح بنفسه : دون ان يتمكن من أن يقول ما الذى دفعه تماما ، او اتى به الى هناك : وتصورت أنه ربما مساق فحسب مساق بتلك القوة التى دفعت به الى المطعم دون ان يكون جائعا ، او على الارجح دون ان يعلم انه جائع ، ومضطر الى التهام اى شىء بشراهة دون الوصول الى هدوئه النفسى ، أو اشباع تلك الحاجة المبهمة أو ملء هذا النقص ، ان يشغل هذا الفراغ الذى تكون فى داخله الذى وانحفر فيه ؟ ولم يكن قد فكر فى هذه الزيارة - لموريس - مسبقا ، مثلما لم يفكر ، مسبقا ، فى الاكل ، بل ولم يفكر فيها لحظة من قبل حينما كان مايزال فى غرفته بحيث انه حينما كان فى الردهة وبدلا من ان يتجه الى السلم ، استدار فى الاتجاه العكسى - ربما بعد لحظة تردد غير ملحوظة - وطرق الباب ، ودخل دون حتى ان يتذكر ان كان سمع ردا) ، دخل الاثنان اذن ، هو وهيكله او ربما هيكله بمفرده ، وقف ، ولاشك ان تعبير الالم والعذاب كانا يعلوان وجهه ، لم تكن المعاناة الداخلية لكن المجهود مثلما حدث له فى مكتب الشئون الاجتماعية ، حيمنا جاهد ليتذكر ما الذى كان أتى من اجله ، مالذى كان يبحث عنه ، بينما قفز موريس من الفراش الذى كان مستلقيا عليه ، اطفا سيجارته فى واحدة من السبع او ثمانية طفايات الاعلانات المتناثرة فى ارجاء الغرفة ، كان واقفا امامه متلجلجا ، متعثرا فى كلماته : « انت .. انا .. اسمع : بالامس حاولت ، اردت ان اقول لك .. اسمع : لست انا ، اسمع أقسم لك : إلا هذا إننى دنىء ، ولكن إلا هذا ، إلا البوليس لست أنا ، اسمع : اننى قادر على عمل الكثير اعلم اننى هددتك بأن أبلغ ، لكن لأننى كنت غاضبا ،اردت تخويفك ، اقسم لك ان ... »

وفى هذه اللحظة ربما رفع مونتيس يده ، او قام بجركة لكى يقول : « ماجدوى ذلك الآن ؟ او حتى : « حسنا ، حسنا اننى اصدقك » ، او ربما قال ببساطة : « كفى تعبتنى ! » ثم تحرك تقدم ودون ان يسمح له (وكأن الادوار قد تبدلت ، مع ذلك الفارق ، انه لم يكن هناك اى شىء فى تصرفه ، او حركاته ، ينم عن رغبة أوقاحة أو تحد ، بل ولا حتى اى ميزة كانت حتى السيادة التى كان الموقف يعطيها له على موريس : لا شىء اكثر من رد الفعل الطبيعى لهيكل منهك ،

والحاجة الى الراحة) ، جلس على حافة الفراش الذى نهض منه موريس منذ لحظة ، وظل هناك ثانية بهيئته الحزينة الساكنة المضطربة قليلا ، لم يسأل عن شىء ، ويبدو انه لم يكن ينتظر أى شىء ، واكتفى (لم يكن فرحا لكن لاشك انه كان اقل حزنا لم يشعر بالراحة وانما بنوع من الهدوء . من السكينة لانه لم يعد بمفرده ، وانه يرى شخصا يعرفه ويستمع اليه . شخص يمثل جزءا مما كان يشكل عالمه طوال الشهور الماضية) . فاكتفى اذن بالنظر فيما حوله دون ان يقول شيئا بذلك الفضول الساكن شديد البراءة فى فضوله بحيث لاح عكس التطفل والفضول ، راح ينظر الى الغرفة غير المرتبة . الى الحقيبة المفتوحة ، وقد امتلأ نصفها ، والدولاب المفتوح ايضا . ثم قال اخيرا وهو يقاطع موريس ، محددا كل احتياجاته ، وسيل كلماته ، تحدث دون ان يرفع عينيه بصوت متردد ، مثقل باكتئاب لا يوصف ، وبيأس لايوصف) : « سترحل ؟ اعنى : بعيدا عن هنا ؟ ستسافر ؟ » .

- ١٦ -

وفيما بعد وقف الاثنان على رصيف المحطة : هنا فى نفس المكان الذى نزل فيه مونتيس ، منذ اقل من اربعة اشهر ، لكن هذه المرة وقف على الرصيف المقابل ، بينما وقف موريس عند فتحة باب عربة الدرجة الثالثة ، فى فترة الهدنة ، فترة الانتظار ، التى يتبادل فيها المسافرون والاهالى النظرات ، وقد بدأ الانفصال بحكم سمك فراغ الجو الذى بين عربة القطار والرصيف كأنه لوح زجاج ، بدأ التباعد ، والواقفون ينتظرون هنا . رءوسهم مرفوعة ، محرجين ، مرتبكين ، بينما يقوم العاملون عند نهاية القطار بقذف اكياس البريد والطرود فى آخر عربة وعند بداية القطار يقف رئيس المحطة يتحسس صفارته ، يقف بجوار الآلهة للأهثة على فترات منتظمة ، ويرتفع الدخان فى الخلاء ، (نفثات ملتفة من الدخان الاشقر تطردها الريح تحت السقف الزجاجى ، وتذيبها فى الشفق الاخضر ، شبه البارد ، ثم تدفعها الى ارضية الرصيف حيث تقبع جريدة مكرمشة اشبه بطائر رمادى ، غير قادر على الطيران ، يندفع ويسقط ثانية ، جريح ، وعلى جبهة موريس خصلة شعر شقراء ، ترتجف بخفة ، ومن وقت لآخر ترتفع دفعة من الاتربة من تحت عربات القطار ، محملة بخبث الفحم الحجرى ، فتجبرهما على أغماض الجفون ، لكنهما لم يكترثا الآن ، كانا صامتين ، واخيرا انطلق صوت صفارة طويلة ، وبدأت عربات القطار تنساب ببطء ، فرفع مونتيس يده الى مستوى كتفه ، وحاول ان يعبر بوجهه عن شىء ما اشبه بالابتسامة وهو يستدير ببطء بينما كان طيف موريس النحيل الواقف عند فتحة الباب ينساب امامه بسرعة متزايدة ، وتشبث وجهه بذلك التعبير الذى لم يكن بابتسامة ، وعيناه الشبيهتان بعينى الكلب ، وشعره شديد الطول الذى يخرج من تحت الطاقية ، والتجعيدتان المرتسمتان ابتداء من فتحتى انفه ، تحيطان بفمه كالندبتان) .

يخيل الى اننى اراه على ذلك الرصيف ، ينظر الى الفانوس الاحمر المعلق عند نهاية القطار ، وهو يتضاءل ، منسابا على القضبان التى ينعكس عليها الغروب ، وكأنه غير قادر على أن يقرر ذهابه من هنا . على انفصاله . على انتزاع نظرته من المكان الذى بعد لحظة لم يعد به سوى القضبان العارية قليلة اللمعان ، بينما بدأت انوار العلامات الخضراء تتألق فوقه محول السكة الحديد . ومن ذا الذى

فى وسعه ان يتخيل ما كان يشعر به الآن ، فى تلك اللحظة التى يرى فيها القطار وهو يختفى بعيدا مقلا آخر شخص يمثل ، آخر صلة تربطه بذلك الماضى القريب والشديد البعد ، الشديد العنف والقصر ، والذى لم يتبق منه اى شىء الآن ، ولا حتى تذكار من تلك التذكارات التى لامعنى لها ـ وردة مجففة ، فردة قفاز ضائعة ـ والتى تحتفظ بها الذاكرة كجزء من الشخص المحبوب فى ركن درج ما ، بل ولاحتى خطاب واحد ، او صورة (قال لى انه لايعلم لماذا لم يلتقط لها سوى تلك الصورة الرديئة التى اطلعنى عليها ، وسط مجموعة من الاشخاص ، مع اصحاب الفندق والطفلتين ، خاصة وانه كان يعيش دائما ومعه تلك العين الثالثة المتدليه على معدته) . لذلك اعتقد انه لم يكن يعنيه أو يهمه أن يوضح الدور (السلبى ، أو المشين ، أو المحتوم) الذى لعبه موريس فى كل هذا الموضوع ، فى الوقت الذى رأى فيه ذلك العالم ، هذا النظام الذى تعلق باسطورته بنوع من الرهبة المتشائمة التميمية ، وهو ينفجر امامه مثل بالونات الاطفال ، دون ان يترك له حتى بين اصابعه تلك البقايا الضئيلة من قطع الكاوتش . فان يكون موريس نذلا ام لا ، لم يكن لذلك اية اهمية الا بالنسبة لموريس نفسه ، لكن ليس بالنسبة لمونتيس بكل تأكيد (على الاقل ليس فى هذه اللحظة) . اعتقد انه كان الآن بعيد عن مثل هذه التأملات . اعنى مناقشة ان كان ذلك الشخص طيبا ام شريرا ، أو ان كانت الحياة نفسها طيبة او شريرة ، بل وابسط من ذلك ، ما الذى تدل عليه تعبيرات مثل "طيب" أو "شرير" (مثل ما نقره عادة ، مانطلق عليه الحق ، القانون ، وان كان ليس سوى نتاج توازن القوى) واى قوى يمكنها ان تقرر الحد الذى لايجب ان نتخطاه ، أو تحدد الحد الفاصل بين ماهو خطأ ام صواب . بين ماهو مباح ام ممنوع ، مثال (العرف الخاص بالشرف الذى ربما كان موريس يرتكن اليه) والقيام بالمساواة والتهديد بالابلاغ (يعد شيئا مسموحاً) ، وواقعة تبليغ البوليس بالفعل (تعد شيئا غير مسموح) .

لأنه هو لم يخطىء ، ولم يصدق للحظة واحدة ان المفتشين قد حضرا تلقائيا بفعل حاسة التخمين ، يطرقان باب روز . كما ان چب ايضا لم يخطىء : فقد هدد روز بالقتل اذا ما وشت به ، وقام بتنفيذ ذلك ، فقد ضربها قبل ان يحاول الهرب ، لأنه هو ايضا كانت له تجاربه ولا شك مع رجال البوليس ويعلم انهم لايكتشفون اللصوص مثلما يحدث فى الروايات البوليسية ، اى بفضل التخمين والاستنتاج الحاذق ، لكنهم يكتشفونهم بفضل شىء أكثر ابتذالا ، بفضل المعلومات التى يفضى بها المرشدون . اما عن مونتيس ، فلا اعلم مالذى فكر فيه ، او اعتقده ، او لم يفكر فيه . على اى حال يبدو انه لم يسأل نفسه ابدا حول هذا الموضوع ، أو أنه ود أن يعرف اكثر مما رآه ، أما ان يكون قد قرر ذلك . أما أن يكون رضخ لهذه الفكرة ، أو لأنه قد وصل الى مافيه الكفاية من منطقة ما بعد الآلام ، الى تلك المنطقة الخاصة التى نصل اليها مكتفين باعتبار الناس والاحداث كمعطيات

نهائية ، دون الضياع فى البحث بلا جدوى عن الكيفية والاسباب . لذلك ، حينما علمنا فيما بعد كيف تمت الاحداث ، لم اذهب لأعيد عليه او انقل له القصة كما تناقلتها المدينة ، ابتداء ، من ذلك المحور على ماأعتقد ، من تلك النقطة الهندسية ، العصبية ، التى تلتقى فيها اخبار المدينة الشفهية ، وتحاك ، وتتكون ، عبر الصراخ المتبادل من غرفة لاخرى وسط تلك الروائح العنيدة وأزيز مجففات الشعر الكهربائية ، ذلك لأنه يمكنك ان تعهد بشىء الى امرأة مهانة ، أو تعتقد انها مهانة ، فتقوم برد الاهانة فى وقت اقل من الذى يستغرقه سردها ، او على الاكثر نفس الوقت الذى يستغرقه سردها ، ضد الشخص الذى أهانها . فلاشك ان زوجة النائب العام وجدت زيارة ايلين شيئا مهينا ، ولايمكن قبوله ، لا من حيث الوسيلة فى حد ذاتها ولكن فى الاسلوب الذى تمت به ، فعندما راحت تصف الزائرة (وامتنعت عن ذكر اسمها ، على اعتباره سرا من اسرار المهنة) الا أنها وصفتها بحيث يمكن لكل شخص ان يتعرف عليها ! بطنها الفاضح المتعالى ، وجهها الشبيه بالالهة چينون ، هيئتها المتعالية ، المستعجلة ، الآمرة ، بل والجارحة ، على حد قول (أو تفكير) زوجة النائب العام ، كما اعتبرت تصرفها مهينا لأنها لم تتصرف مثل كل الناس ، اى انها لم تذهب لمقابلة زوجها فى مكتبه ، فى المحكمة ، اثناء النهار وبينما كان يمارس مهامه الوظيفية ، مثلما كان اى فرد آخر سيتصرف ، بدلا من الذهاب اليه فى بيته الخاص ، دون مراعاة عدم ازعاجه ، وذلك فى الوقت الذى كان سيهم فيه بالجلوس الى المائدة لتناول عشائه . وقلت فى نفسى : عشاء ؟ وفكرت : اذن لقد ذهبت مباشرة ، بلا انتظار ، ما أن اخذت الورقة التى كتبتها اختها ، وبعد أن قامت بربط الاحداث ، بعد ان دفعته الى الحديث ، واغرته بالنقود ، (هى ، ربة الاسرة ، الزوجة المحترمة التى لم تقم فى حياتها باتمام صفقة ما ، ولم تعرف النقود فى حياتها ، ولا قانون المساومة الذى لايرحم ، أو قانون "خذ اكثر ما يمكن وادفع اقل ما يمكن" ولم تعرف اكثر من تلك الورقة التى تكتبها لطباختها صباح كل يوم فى المطبخ وتعطيها لها مع بقية الاوامر قبل ان ترسلها الى السوق - وهو (موريس) ذلك المساوم الحقير ، المشبوة المورد) مثل القوادة الشمطاء وما تفعله بطفل من اطفال الكورال .

اتخيل انها فى بادىء الأمر قد عادت الى المنزل ، اعنى : عند والدها . أكاد اراها تدخل غرفة المكتب الداكن حيث الرجل البدين مازال جالسا وسط الموبيليا المغطاه بالقطيفة والصور المزينة بالريش لجنرالات سياس ، ثم تلقى امامه ، بانتصار ، فوق ساقه ، بصفحة المفكرة المنزوعة قائلة ، دون ان ترفع صوتها ، ودون حتى نبرة الانتصار التى قد لاتتمكن غيرها من كبحها (وكأنها تتحدث عن فاتورة ثم تصحيحها ، أو عن خلاف مع احد الموردين ، او خادمة تم فصلها ، أو عن احدى تلك التفاصيل المنزلية التى يقع على عاتق المرأة ترتيبها ، وتسويتها بسرعة وبكتمان ، لأنه ليس من صفات الازواج او الامهات - ولا من كرامتهم ، -

بل ولاحتى فى وسعهم ان يهتموا بمثل هذه الامور الدارجة والبسيطة فى آن واحد ـ (ولعل ذلك يرجع الى شعور الازدراء المحترم المحافظ الذى تشعر به اية امرأة بابهام حيال اى رجل) ـ

وقالت : "ها هى . حصلت عليها" ، ويأخذها منها الرجل البدين ، يلقى عليها بنظرة شاردة ، يطبقها مرتين ويلقى بها فوق مكتبه وهو يرفع منكبيه ، وعندئذ تقول هـى : "ما الذى تنوى عمله " هو : "عمله ؟" ، هى : "مع سسيل . هل .." هو : "اعمل ماذا ؟ ما الذى تودين ان افعله . على اى حال ، ان كان ذلك الشاب يعجبها .." هى : "هذا الشاب ؟ ذلك العبيط الذى كل المدينة .." فينظر اليها دون ان يقول شيئا ، وعيناه الضيقتان اللئيمتان ، الغبيتان والنهمتان ، القذرتان اللامعتان على وجه مصاب بعدة وردية ، الى ان قالت : "هل ستتركها تستمر ؟ هل ستتركها تذهب اليه تستنفذه ثانية فى ذلك الفندق المريب ، وتطلب منه لقاءات اخرى على اوراق المفكرة ليأتى صعلوك يعرض علينا شرائها ؟" واخيرا دبت الحيوية فى سلبيته الغامضة وفى وجهه الثقيل ، وتململ ، ليقول بنبرة ضيق : "كل ذلك ليس بالأمر الخطير . على كل حال انه .." فقالت : "ليس بالأمر الخطير ؟ هذا الغبى الذى ، على وشك بلوغ الاربعين من عمره ؟ هذا العبيط الذى فوق ذلك يلاحق عاهرة ؟ الا ترى خطيرا ان تتورط سسيل وتهزئنا وربما اكثر من ذلك ، .. لا . الا انا . الا انا" ، فقال وهو مازال بلا حراك ، ضخم فى ظلاله المخملية : "مالذى تنوين عمله ؟ انها .."

فقالت : "انوى عمله ؟" ، ونهضت ، ارتدت قفازها : "انوى عمله ؟" ، عادت الى هدوئها ، باردة ، ساكنة ، وضعت قبعتها بهدوء ، عدلت من ثوبها امام المرآه وهى تقول : "يجب أن ينتهى كل هذا" ، وقالت : "اعتقد اننى اعرف وسيلة" ، ثم قالت : "على اى حال ، ستكون النتيجة دائما غيابهما ، وبعد ذلك سنرى ان كانت .. واستمرت وكأنها تحدث نفسها ، وقد عادت ثانية الى ذلك القناع البارد ، المغلق ، الذى كانت تصفه زوجة النائب العام فيما بعد وهى تحكى القصة : فنهض زوجها حينما اعلنت الخادمة عن قدوم الزائرة ، وجدها تنتظره فى الردهة ، تنظر اليه بنفس تلك العين غير المعبرة (بنفس الطريقة على ما اعتقد التى نظرت بها الى موريس ، والى الغجرى الذى ضبطته عاريا مع خادمتها ، الذى كانت تنظر اليه مثلما كانت تنظر الى موظف شركة الغاز الذى يحضر لقراءة العداد أو الى طبيب الاسنان ، أى دون ان تراهم ، مثلما تطوعت ايام الحرب كممرضة ، فكانت ولاشك ترفع البطاطين ، وتعاون الجرحى على قضاء حاجتهم بنفس النظرة) راحت تنظر اليه بينما كان يقترب تجاهها معتذرا ، اما هى فمدت له يدها بالقفاز ، بنفس الطريقة ، الغائبة عن الوجود ، المتحجرة .. كانت تعرفه ، فقد تعرفت اليه اثناء دعوة عشاء من قبل ، حيث جلسا جنبا الى جنب ولعل ذلك ولاشك هو الذى جعلها تحسم الموقف ، وتقرر هذه المحاولة التى لما فكرت فيها

ابدا لو اضطرت للذهاب الى مأمورية البوليس وتطلب التحدث الى شخص لاتعرفه . اما السبب الثانى الذى دفعها الى الذهاب اليه فهو أملها فى أن تحضر الفضيحة التى كانت ستتورط فيها شقيقتها اذا ما راح البوليس يتبع ما تخيلته من وجود عصابة ، ورئيس عصابة وعصابة من اللصوص والعاهرات التى سقط بين ايديها ابن العم العبيط ، ولم تكن لتكترث به ، ولكنها كانت هناك شقيقتها . ولاشك انه لولا ذلك ايضا لاعتبرت هذه المحاولة ، حتى ، وان كان الهدف غير المغرض هو الايقاع بلص ، لامن حيث الكبرياء ، او الحياء ، لكن لأن التدخل فى محاولة اقل من مستواها يعد من المسائل المهينة فى نظرها ، اذ ان الاشخاص الذين تتم سرقتهم يتورطون ايضا بصورة ما (مثلما يحدث فى حوادث الاغتصاب) ، اى انهم يتورطون بحكم اشتراكهم فى احدى هذه الحكايات القذرة التى يمكن قراءتها فى الصحف ، فى باب الاغتيالات والمحاكم الذى يبدو انه محجوز مثل الهزات الارضية والفيضانات ، لفئة معينة من الناس - كاليونانيين ، والصينيين ، والعائلات الايطالية البائسة التى يمكن رؤيتها فى الصور ، بثياب رثة ، قذرة ، يحتضنون احدى هذه الاشياء القذرة مثل المقلاية او لحاف تم انقاذها من الكارثة - فئة حتى وان كانت لضحايا سلبيين ، فانهم يحملون ثقل اللعنة والخطيئة الى حد ما .

وهكذا ، ووفقا لقول زوجة النائب ، كانت ايلين تقف هناك ، ربما مثلما كانت ستقف فى مكان سىء السمعة ، او على الأقل فى مكان مشكوك فيه ، معتبرة ان النائب ينتمى ايضا الى عالم الجريمة والقذارة - ولايعنيها أن كان عدوا - فاكتفت بأن مدت يدها وسحبتها بعد ان صافحها (أو قبلها) دون حتى أن تظهر انها لاحظت انه لمسها ، ثم تبعته الى غرفة الطعام ، وحيت السيدة والاطفال الجالسين حول المائدة . بانحناءة من رأسها (بنوع من الابتسامة المطبوعة الآلية ، التى كرمشت وجهها ، لم تضئه : وانما مطته ، وسرعان ما عاد الى عدم تعبيره فى اللحظة التالية : ، ثم دخلت المكتب ، وما ان اغلق الباب عليهما حتى قالت وهى مشدودة ، متصلبة ، دون ان يبدو عليها انها لاحظت المقعد الذى كان يقربه منها : "هاك الموضوع : اتتذكر واقعة سرقة المجوهرات التى تمت منذ فترة ؟" ثم قالت : "لقد تذكرت فجأة أن الاشخاص الذين وقعوا ضحية هذه السرقة كانوا قد عينوا خادمة كنت قد طردتها فى بداية هذا الشتاء .." ، ثم توقفت ، راحت تنظر اليه وهى تجذب انفاسها ، بحدقتين باردتين ايضا ، لونهما ازرق فاتح ، ثم استدارت ، راحت تتأمل زخارف المدفأة ، أو أى شىء فوق المكتب ، أو مقعد ، بينما كانت تقول بسرعة شديدة : "حسنا . لقد علمت اليوم شيئا سمح لى بعمل مقارنة معينة ، بالطبع قد اكون مخطئة ، لكنى اعتقد اننى اعرف من هو السارق"

وبعد ذلك ، لعلها اكتفت بالبحث فى الجريدة صباح كل يوم بوجهها المتعالى الدقيق المتوتر قليلا ، يشوبها الملل ، التفكير ، مقطبة الحاجبين ، تقلب الصفحات بضيق الى ان عثرت اخيرا بعد يومين ، وان لم يكن بالضبط ما ينطبق على توقعاتها ، فقد قرأت كلمة "مصرع" بدلا من "تم القبض" ثم قرأت "مجرم خطير"، وبعد مسافة قرأت "مطعونا بالخنجر"، لكنه دون ان تهتز عضلة واحدة من ملامحها ، كانت حدقتاها فحسب هما اللتان تتحركان ، وهى تمر على الصفحة يمينا ويسارا ، ومن اعلى الى اسفل ، وهى تلتهم الاسطر لتقرأ المقال ، لكنها لم تكن راضية او منفعله او مضطربة ، ولعلها لم تفكر فى أكثر من : "اذن لم أكن مخطئة ، كان هو" ولم تضف شيئا ، واستمرت فى القراءة كما لو انها لم تشترك فى كل ذلك اطلاقا ، بل ولم تفكر حتى لتبرر تصرفها "على اى حال . كانا سينتهيان بهذه الصورة" ،

وانما قالت : "والآن اعتقد ان ذلك يعتبر درسا لها" ولم تعبر عن اى شىء آخر اكتفت فقط بان تركت الجريدة فى مكان واضح ، مفتوحة على الصفحة التى بها المقال ، وربما وضعت علامة معينة أو اى شىء لتدرك منه ان كان احدا قد أمسك الجريدة وقرأها ، وراحت ترقب وجه اختها تنتظر ، تراقب تحركاتها ، تستنتج وفقا للوقت ، ولنوعية الثياب التى ترتديها ، والاتجاه الذى تسير فيه واحتمالات جدول اعمالها ، وبكل تأكيد لم تكن بحاجة لكى تتبعها ، مكتفية فى المساء بذلك الفحص الحاد (ليس الذكاء والاستنتاج ، بل ولا حتى المراقبة : شىء ما اعمق من هذا ، شىء فى كيانها ، فى لحمها : مجرد لمحة خاطفة ، ومضة خاطفة ، تضبيق خاطف لحدقتيها الزرقاوتين الباهتتين ، بلا لون تقريبا ، نظرة حادة ، ثم لاشىء) ذلك الفحص الذى تتمكن النساء من خلاله لا باستنتاج الاشياء وانما بحسها ، فهن يعرفن قبل ان يعرفن انهن يعرفن ، وتأكدت .

وبالفعل ، حينما سألت مونتيس فيما بعد ، قال لى انه لم يرها ، وانها لم تذهب لمقابلته ورمقنى بتلك النظرة المندهشة ، المذهولة والمتضايقة الى حد ما ، كأننى سألته سؤالا دون رغبة فى سماع الاجابة ، بحيث ظللت انظر اليه فترة ، وكاد الغضب يعترينى ، بينما رحت اتساءل : "ما الذى يخفيه ؟ هل .." ثم اشحت بوجهى وقلت اى شىء وانا افكر : "لا . لا اوب دى فيجا ، ولا كالديرون .

لاشىء سوى الديكور : الواجهة المصنوعة من الطوب المطلة على الميدان ، العارى ، الميت ، الخالى ، الذى تلفحه الشمس احيانا ، او تغرقه الظلال ، وانما يلفحه ويصقله ذلك الريح الذى لا يكل بلا هوادة ، ولايوجد ممثلون يثرثرون عند مقدمة المسرح يحكون اسرارهم ، وآلامهم ، وانما هناك شىء ما اخرس ، اخرس مثل هذا الديكور ، وهذا الحائط العارى ، وهذا الباب الثقيل . وصمت مطبق تماما ؟ ولا اى تمثيل صامت بحركات معبرة ، أو وقفات ، أو حركات تقليد : شىء

ما حيث يوجد فى أعماق المسرح واجهة ذلك البيت الفاخر الصارم ، والممثلون يظهرون ، يعبرون خشبة المسرح بلا توقف ، يمرون امام البيت ، يدخلون او يخرجون بنفس ذلك القناع الصامت ، غير الذاتى ، الاصم ، مجرد تحركات لايمكن تفسيرها ، وغير مفسرة ، ويظل المسرح خاليا لفترات طويلة ، ولاتحتله سوى الريح كلما اصبحت الشخصيات بحركاتها الصامته (ولايتحدث الممثلون فى أكثر من حالة الجو ، او بعض التفاهات ، أو الطعام الذى تناولوه أو لون احد الثياب) وفجأة ، ودون ان يكون قد حدث اى شىء آخر ، ودون ان يرفع احد صوته ، أو يحث خطاه ، أو يئن ، أو حتى دون ان يجرى احد : نرى تابوتا او ميتا ، وذلك دون ان تتغير تلك الملامح التى لاتهزم . وكأنه لايدور اى شىء خلف تلك الجدران ، ولا خلف تلك الوجوه ، بل كأنه لايوجد اى شىء تحت هذه الثياب ، أو فى هذه الاجسام ، ولا اى شىء ايضا تحت الجبهات ، لا أفكار ، ولاقلوب ، ولا اعضاء تتألم ، أو تتمنى ، تغضب ، منفعله وواهنة ، بل ولا حتى (اشخاص) من حاملى السيوف علانية ، أو يمسكون بالمعول او الخنجر الذى يرفع جانب الحرملة ، بل ولا يرتدون الخواتم التى يخفون بها السم ، وكأن كل ذلك لاطائل له ، ولا يصلح الا لسكان فيرونا او سراجوس أيام حكم فرديناند داراجون ، اما هم (الشخصيات العصرية) فيمتازون ولاشك بملكات وبأسلحة غيبية ، أو فائقة الصنع مثلما فى روايات الخيال العلمى ، لكنها اسلحة غير مرئية ، تعطيهم القدرة على الصعق عن بُعد ، دون القيام بأية حركة أو دون نطق اية كلمة ، فيسقط احدهما ميتا دون ان يتمكن الآخر من النظر تجاهه . او دون القيام بأية حركة : بل ويمكن قول افضل من ذلك : ان يتشابكا فى مبارزة دون ان يرى كل منهما الآخر ، كالعميان ، دون حتى الشعور بهما (حيث ان اتقان الاسلحة قد وصل الى هذا الحد) مثل هؤلاء الاشخاص الذين لا يدركون انهم اصيبوا بجراح الا بعد فترة ما ، فيقولون : "ترى اين استطعت ان اجرح نفس ؟" ، أو حينما يعودون الى ديارهم بعد الافلات من حادث ما ، وهم سالمين شكلا ، وفجأة (بعد ساعة ، او بعد يوم أو حتى بعد اسبوع) يشعرون فجأة بالآلم ، فيرقدون فى الفراش ، وبينما هم يحتضرون ، يعبر قناع الموت لأول مرة عن شىء ما ! يعبر عن مفاجأة لاتوصف ، عن اندهاش خفيف ، او شىء من الاستنكار ، او الاستغراب الذى لايوصف .

وذلك مثل التعبير الذى كان يمكن تبينه على وجه مونتيس حينما كنت احدثه عن سسيل ، واسأله أن كان قد رآها ثانية واعتقد انه كان نفس التعبير ايضا الذى ارتسم على وجهه حينما ذهب موريس لملاقاته وهو جالس على الاريكه فى الميدان ليساومة ومعه ورقة الاجنده المنزوعه والمكرمشه التى وضعتها تحت باب غرفته لتطلب منه تحديد موعد بسرعة . لم يكن التعبير والاندهاش ينم عن الاستغراب بقدر ما كان يدل على انسان مستغرق فى محاولة حل مسألة حسابية

عويصه من الدرجة الرابعة ثم يأتى احد ليسأله عن الغلام الذى قذف بالكرة على نافذته . والوضع ببساطه هو : انه لم يرها . على اى حال لم يقل لى أكثر من هذا ، او أكثر مما وصفه لى ، مثلما رآها اثناء ذلك العشاء ، فى ذلك المنزل الكئيب الشكل (لكنه حدد انه كان يفكر فى ذلك اليوم الذى دعاه فيه المسجل فى منزل والده فى غرفة الطعام التى فتحت لهذه المناسبة ، الحجرة ذات الرائحة العفنة والجو المغلق : فكل المنازل هنا تشبه سراديب الدفن) : وتلك الفتاة الشبيهة بالصبيان ، شعرها القصير المقصوص كالصبيان ، بلونه الكستنائى ، شعر اشعث وكأن يد الحلاق لم تمسسه قط ، وجسدها الشبيه بالصبيان ايضا ضيق الحوض ، باكتاف مربعة ، ووجه حاد ، نحيل قاس ، وكأنه منحوت على عجل ، وكأن الوجه والجسد ، وكل الباقى ايضا ، يمثل نقيض شقيقتها ، الشبيهة بالآلهه چينون المنمقة ، الملامح ، المستديرة ، ذات الارداف الممتلئة ، وسواء كانت سسيل تمثل النقيض الطبيعى ، أو سواء كان عدم التشابه هذا نتيجة لارادة محددة ، متصلبة الرأى ، عنيدة ، لم تقم بتنمية كل ما يمكن ان يميزها عن شقيقتها الكبرى فحسب وانما بتنمية كل ما يجعلها نقيضتها . واذا ما نظرنا فى الامر وفقا لما حدث بعد ذلك ، يتضح صواب هذا القول ، أى كانت هناك ارادة ، وثورة ، وربما لم تكن موجهة ضد اختها فحسب . ربما كان هناك شىء اكبر من ذلك ، وبالتالى شيئا أكثر ابهاما ، وبالتالى شىء يصعب تهدأته .. ثورة من تلك الثورات التى لايوجد لها سبب واضح ، والموجهه ضد لاشىء ، وضد كل شىء : اختها ، عائلتها ، لون عينيها ، الوسط الذى تعيش فيه ، حذاؤها شديد الضيق ، الزجاجة التى لاتفتح بسهولة ضد اى شىء ينم عن اية مقاومة ، وفى نفس الوقت ، وكنوع من التناقض ، ضد اى شىء يرجع بسهولة ، وربما كان (هذا الغضب ، هذا الحنق البارد ، الدائم ، هذا التمرد اجمالا) موجها ضد نفسها فى المقام الأول ، اى ضد وصفها الاجبارى كأنثى ، بل وأكثر من وضع الانثى : وضع الشابه ، كنوع من المزايدة على الحالة الاولى . ذلك الاستعداد الذى يعد بمثابة كيان النوع الانثوى : ادراكها بأنها ليست الا فراغا ، وعاء ، آنية .

وفيما بعد ، حينما علمت المدينة بمختلف تفاصيل القصة ، والطريقة التى فسخت بها خطبتها ، وكيف جرت خلف مونتيس دون مراعاة للحياء ولا للتقاليد المتبعة ، وبلا اية مهارة (وان كان المعنى واحدا بصورة إجمالية) . ثم عادت الى خطيبها لتتركه مرة ثانية - أو هو الذى تركها - بدأ الناس يتلسنون عليها .

ولاشك انها اعطتهم الفرصة لتعويض مافاتهم . خاصة وانها قبل ذلك لم تعطيها لهم ، فلم يجدوا ما يتهامسون فيه سوى طريقة لبسها ، وقصة شعرها ، وتصرفاتها الصبيانية .. لم تكن حتى مثل هؤلاء الفتيات اللائى ينتحين جانبا فى

الاحتفالات ، جانبا بعيدا عن الاضواء ، او يتسللن خلسة اثناء الحفلة فى نفس الوقت الذى يختفى فيه احد الشبان ، كما ان الشبان فيما بينهم ، لم يتحدثوا عنها ابدا بهذه الطريقة المميزة (وهم يتغامزون عليها) مثلما يفعلون وهم يتحدثون عن الفتيات الاخريات ، حتى اكثرهم دراية ، مالكى السيارات ، والسيارات المكشوفة ، حتى الذين اصطحبوها ، مندفعين وهم يرقبونها بطرف عينيهم الى مكان تعطلت فيه السيارة زعما ، او الى المكان المناسب . فلقد حدث ذلك ثلاث او اربع مرات : تتوقف السيارة فى الظل ، وشخص آخر يرقب من الخلف ويراهما عبر الزجاج الخلفى ، الرأسان بشعر قصير ، رقبتان لصبيين ، فى البداية كل رقبة على طرف من المقعد ، ثم احدهما ـ يقوم بحركة ، يقترب ، يميل ، وعندئذ ، وبصورة شبه تلقائيا ، صوت الباب يغلق بحدة وطيف الفتاة النحيل واقفه على الطريقه ، تسرع الخطى (حتى وان كانا على بعد عشرين او ثلاثين كيلومترا من المدينة وفى عز الليل) دون ان تلتفت ، دون ان تنظر خلفها مرة واحدة بينما الشاب يحرك السيارة ويلحق بها ، يسير بجوارها ببطء على الصوت الهامس الصامت للعربة ذات الستة او ثمانية سيلندرات ، وقد اخرج رأسه من النافذة ، يعتذر ، يتوسل ، الى ان تتوقف قائلة : "حسنا . سأركب . لكن ، ابتعد " والشاب يقول : "ابتعد .." فتقول "انا التى سأقود . هيا . اسرع" وتفتح الباب ، ويقول الشاب : "لكن ، اسمعى : هل تجيدين القيا .." فتقول : "ابتعد ايها الاحمق !" ، فيقول الشاب : "على الاقل هل معك رخصة القيادة ؟" فتقول : "لا . هيا . كيف تتحرك سرعات هذا المحرك" وبعد ذلك يمكن رؤية هذا الشاب جالسا فى شرفة اى مقهى او بار ، وهو مازال يشوبه الهلع ، يحاول ان يتمالك نفسه بابتلاع كأس ، أو يكون مايزال مهزوزا ولا يستطيع التباهى او تأليف احدى البجاحات ، وغير قادر الا على ترديد "ياالله .. ياساتر .." كالأبلة ، ثم يقول (للخادم ، او للبارمان ، أو لصاحب يقابله) : « ياالهى ! حينما رأت تلك الشاحنة تنقض قلت فى نفسى : ان الضربة قاضية ! لكنها تمكنت من الافلات ، دون ان ترفع قدمها من فوق بدال السرعة وكأنها ملتصقة به . وهل تعتقد انها هدأت السرعة بعد ذلك ! ياالهى ! وحينما وصلنا الى منحنى الـ ..." وهكذا ربما استطعنا ان نتخيلها (أو على الارجح ان نحاول تخيل ما الذى اعتمل فى داخلها) وفى ذلك اليوم الذى رأت فيه مونتيس لأول مرة ، هو يتقدم نحوهم (والدها ، شقيقتها ، هى ، وذلك الخطيب ـ لاشك انه واحد من الذين استطاعوا التغلب على خوفهم ، او على الاقل لايظهره ، وظل ممسكا بصمت بمقعده بينما كانت تقود السيارة بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة حتى فى المنحنيات ، وتلعب الاستغماية مع سيارات النقل ، وتكون معدته من القوة بحيث يمكنه القول حينما ينزل من السيارة « كانت رحلة ممتعة : متى يمكننا القيام بجولة اخرى ؟"

فكان يتقدم اذن مرتديا تلك الجاكته المصنوعة من القطيفة الناحلة والمائ الى الاخضرار ، بوجهه الغريب المهموم ، وشكله المذهول الهادىء ، ونظرته المتناقضة التى تجمع بين نظرة الخونة السوداء ونظرة فتى الشاشة ("وملايينه على حد قول الناس ـ يبدو انك نسيت انه فى هذه اللحظة كان قد ورث ضيعه من اجمل ضيعات المنطقة وان ..") حسنا : وملايينه ، على الأقل من حيث فاعليتها . لا انساها . لايوجد من ينسى الملايين . بل وماهو اقل من الملايين . حتى ـ وخاصة ـ من ينسون انهم لاينسونها . اذن ، لقد رآت هى كل ذلك : الجاكته الناحلة ، الوجه ، العينين والملايين . حسنا . ولماذا كانت لاتراهم ؟ حسنا) . يبقى ان ذلك يمثل شيئا او بمعنى اصح يمثل شخصا لا يشبه اى فرد من الذين تخيلتهم أو عرفتهم حتى هذه اللحظة بل ولا يشبه اى واحد من هؤلاء الشبان الذين يملكون السيارات المكشوفة آوحتى بلا سيارات ، كما انه لايشبه اى واحد من هؤلاء الرجال الذين كوّنوا انفسهم والذين يتحدثون عن اسعار النبيذ ، وعن التدابير السياسية ، ولعبة البريدچ او ما كانت تستهلكه سياراتهم . فلا شك انها بدأت تعرف ما فيه الكفاية عن الشبان ذوى السيارات المكشوفة . عن مضارب الكرة والياقات الايطالية ، وعما يصل اليه نفس هؤلاء الشبان فيما بعد ، وعلى نوع الحياة التى يمكن لامرآة ان تحياها بجوارهم .

"لكنها كانت تمزح فحسب ، على حد تعبير مونتيس انت تعرف ما معنى : فتاة من هذا الوسط ، جميلة ، شابة ، وانا .. لعلك تدرك . كانت تمزح فحسب . لم تكن سيئه النيه" ـ فقلت : "لا ، لم تكن سيئة النيه . لكننى لم اتحدث عن سوء نيه" ثم فكرت اذن لقد فسخت خطبتها . لكن الفكرة لم تدر بخلد مونتيس ان تكون فسختها من اجله . وعلى اى حال فلا يوجد ما يثبت ذلك . حتى كونها راحت تبلغه بهذه الواقعة ببساطه وفى غرفته . على اى حال ، لسبب او لآخر ، لقد تم وحدث الآتى : لقد طردت خطيبها وبعد فترة ، بما انه (مونتيس) لم يقرر الذهاب اليها لم تطأ قدماه منزل والدها ثانية ، فقد قررت (او انتهزت فرصة الدعوة الثانية التى وجهها له والدها ، أو اقترحت على والدها ان يدعوه هذه المرة الثانية ، أو وافقت على اقتراح والدها بأن تقوم بنفسها بتوصل هذه الدعوة اليه لتوفير طابع البريد) لذلك قررت الذهاب لمقابلة مونتيس فى فندقه القذر .

لكن حتى فى هذه المرة فهو لم يرها . على الاقل لم يرها كما كانت تتمنى ، او تتوقع ان يراها ، ذلك انه بعد ذلك لم يذهب اليهم مرة اخرى ، مما اضطرها ، هى ، ان تذهب اليه ثانية (ولم اسأل مونتيس) ان كان ذلك يمثل جزءا من المزاح : الإهانة ، الغضب ، الغيرة ، وحقيقة معاملتها للشبان الاثرياء فى المدينة على انهم مجرد مستأجرى سيارات ، وان تجد نفسها امام احد متصنعى الشجاعة

الذى يكبرها بخمسة عشر عاما والذى لم يلحظها فى حين انه كان يقوم بدور الاب الحنون على مرأى من الجميع مع طفلتى خادمة مطعم حقير . حسنا . وان تكون قد عادت لتلقاه للمرة الثالثة ـ ربما لتعتذر له عن تصرفها ، عن وقاحتها ، او ان تكون قد فهمت ، او وافقت ، او ارادت ان تقول له ، عكس ما كانت قد تمنته : « ادرك الامر ، لقد تصرفت كالبلهاء . حسنا . هل تود ان نكون اصدقاء ؟ » ، لكن حينما لم تجده ، كتبت بسرعة على صفحة المفكرة التى مزقتها ووضعتها تحت الباب . وذلك ايضا من قبيل التسالى والملايين ، بلاشك . لكنها فعلته . ثم لاشك انها انتظرت ان يقوم باية بادرة ، ان يرسل لها كلمة ، اى شىء تفهم منه انه رآها ، انه رغم كل شىء قد لاحظ وجودها ، وحينما علمت بما حدث ، سواء عن طريق احد الخدم ، او عن طريق الناس ، او ربما من تلك الجريدة التى تركتها اختها عمدا ، لاشك انها ظلت تنتظر ، وربما بنوع من الأمل ، وان كان بطريقة اخرى ، فإذا ماكانت قبل قراءة الجريدة يمكنها ترك الكبرياء والحياء جانبا لتعود ثانية لتحاول لقاءه ، فالآن لم يعد بوسعها الذهاب ثانية دون التوغل فى حدود البذاءة ، لا لأنها علمت او عرفت بمحاولة موريس ، والطريقة التى استخدم بها تلك الورقة التى كتبتها (اذ يبدو انها لم تعلم بذلك ابدا ، كما لم تعلم بزيارة اختها للنائب) ، لكن ببساطة لأنها أبت ذلك على نفسها ، واكتفت بالانتظار ، بهدوء شكلى ، فكانت تخرج ، وتعود ، وتعيش حياتها العادية ، بينما اختها ترقبها ، لا مما ينعكس على وجهها ، الذى كانت تعرفه جيدا لكى لاتتوقع ان يدلها على شىء ، لكن من تلك العلامة الذاتية ، تلك الرجفة الغريزية التى تطلعها على كل ما تود معرفته .

ولم يشاهدوها مع خطيبها ثانية الا بعد ذلك بفترة ، بعد ان فسخت خطبتها بشهر تقريبا ، مثلما يطرد احد الخدم ، وهى تركب السيارة بسرعة وتجلس بجواره ، بوجهها الصغير الصارم كالصبيان ، والذى لاينم عن أى شىء . ثم فجأة (وبعد أكثر من اسبوع ، او ربما عشرة ايام) انتهى الموضوع ثانية : لم تعد هناك تلك الرأس بشعرها الاشعث الكستنائى ، لم يعد فى السيارة الا النصف الاعلى لشخص واحد حينما كانت السيارة تمر فى المدينة ، (شخص هادىء ، رزين ، منزو الى حد ما ، بوجه اشبه بالرومان مثل معظم الناس هنا ، صبغته الشمس ، يرتدى دائما تلك البدلة الرمادية الانيقة التفصيل ، والذى يعمل فى تجارة والده ، مثل كل الابناء الوحيدين الذين مصيرهم هو الجلوس ذات يوم على مقعد مازال دافئا فى مكتب معد مسبقا وأمامه كومة من المراسلات جاهزة على التوقيع وحياة مجهزة مسبقا ايضا) ، ثم هو نفسه اختفى ، سافر ، وبعد فترة ، وجده احد اصدقائه جالسا بمفرده على مقعد احد البارات ، فى مكان ما بالكوت دازور (فى مكان مامن بيت الفساد الفاخر ولعب القمار الممتد على مائتى كيلومتر تقريبا حيث اضطر والده لارساله الى هناك بعد ان ملأ جيوبه بالنقود أملا فى انه -

من كثرة دس النقود او شىء آخر فى الفتحات المصطفة بطول المائتى كيلومتر من الشاطىء سينجح فى النسيان) ، كان الخطيب يجلس هناك ، وقد ارتسمت على انفه علامة الافراط فى احتساء الخمر ، وان لم تكن تلك عادته ـ لكن ربما قد اصبحت من عاداته ـ وبدأ يتحدث ، لأن هناك اشياء حتى وان كان الشخص مهذب الى اقصى حد ، ورغم كل نياته الحسنة ونشأته الطيبة ، لا يستطيع كتمانها حينما تقع له ، فراح يصف نفسه وهو جالس امامها (سسيل) فى شرفة ذلك المطعم حيث اصطحبها لتناول الغذاء ، وكانت هى بنفس شكلها العنيد ، المنطو (قال انها لم تنطق باكثر من ثلاث كلمات طوال فترة العشاء ، ولم تقل اكثر منها طوال الاسبوع الذى بدأ يلتقيان فيه ثانية ، وانه كان يصطحبها إلى كل مكان فى هذه السيارة آملا فى فك تجاعيد وجهها او على الاقل آملا فى الحصول على ابتسامة او حتى مجرد نظرة بسيطة بدلا من عدم حديثها ، نظير كثرة مجاملاته وملاطفاته) ظلت تنظر الى البحر ، الى الشاطىء الكئيب (ليس الى ذلك الديكور السينمائى كما فى الكوت دازور ، باشجار الارز المنقولة وصخورها المدهونة باللون الاحمر على الاقل ، مرة فى بداية الموسم ، وانما لم يكن امامها سوى : الرمال والبحر فى ضوء الربيع الباهت ، وثلاثة او اربعة فنادق شديدة البياض وشديدة الارتفاع ، مزروعة هنا ، على الرمال المسطحة ، وسط الحشائش والاشواك ، وباقة ضئيلة من شجر الارز المائل بزاوية خمس واربعين درجة ، وبعض الفيللات ذات النخيل ونصف الغارقة فى الرمال ، والبحر خال عار ، والشاطىء خال ، عار ، شاسع ، مهجور ، تعلوه سحابة غير واضحة ترفعها الرمال التى تثيرها الريح ، ولا اى شىء آخر سوى هدب مسطح ، وقليل من الزبد بطول الشاطىء ، تفترش بلا ضوضاء ، مايكاد يتكون ، حتى يمتص ولا يبقى منه الا تلك الفقاعات المثقوبة من سيل الرمال) ، وقالت (سسيل) فجأة : « الا يؤجرون غرف هنا ؟ » فانتفض هو ، ونظر اليها (لكنها لم تنظر اليه ، ظل وجهها الدقيق متجها ناحية البحر ، بأنفها الدقيق الصغير الشبيه بانف الصقر ، وعيناها الرماديتين الصفراوين تحدقان فى الافق الخالى ، المسطح ، الذى يدفع الى اليأس) : « غر ... لا اعرف .... انا ... » هى : « الم تأت ابدا الى هنا مع فتياتك ؟ » هو : « مع ... لكن ... » هى : « ومع ذلك فيبدو انهم يعرفونك هنا » ، هو : « بالطبع . لقد جئت عدة مرات . ان الطعام جيد و .... » هى : « لا اسألك عن الطعام . اسألك ان كانوا يؤجرون غرف » ، فقال : « لكن ... » ، هى : « اذن استأجر غرفة ؟ » ، هو : « لكن ... » ، هى : « اقول لك استأجر غرفة ، الا تفهم الفرنسية ؟ » . وحينما تواجدا داخل الغرفة ، هى فى منتصفها ، تنظر ببرود فيما حولها ، الى ذلك الديكور النمطى لعشاق نمطيين ، بوجهها الصغير الذى مازال لاينم عن أى شىء ، مزدرد ، قاس ، وفى النهاية استدارت ، وقالت بشكل عنيف ،

نافد الصبر : « حسنا . وما الذى تنتظره لكى تستغل الفرصة ؟ » ، هو : « اسمعى ، سسيل ، انك .... » ، هى : « الم تقل لك ان الفرصة مواتية ، عليك بانتهازها . عليك بالاسراع لانتهازها ؟ » ، هو : « لكن عمن ... » ، فصاحت : « عن اختى ! إيلين ! كف عن الاستعباط ! اليس صحيحا ؟ هل انا مخطئة ؟ الم تتصل بك تليفونيا ، او لم تشر اليك ، او تطلب منك العودة عن طريق اى شخص . قائلة ان الوقت قد حان . وانه ماعليك الا ان تظهر . لأننى ... لأننى .... » ، وفى هذه اللحظة خانها صوتها ، احتبس ، خنقتها العبرات المكتومة ، لكنها تمالكت نفسها فورا ، وصاحت ثانية : « هل تجرؤ على انكار ذلك ، انها .... تلك العاهرة ..... اجب : اليس صحيحا ؟ » ، فاخفض رأسه : « اى ان .... » ، هى : « حسنا هذا يكفينى » ، هو : « اسمعى ، سسيل ، لقد طلبت منك ان تكونى زوجتى ، انا .... » ، هى : « حسنا . نعم . تماما . نحن . اننى وحيدة فى غرفة معك . اليس كافيا ؟ » ، هو : « لكن ليس بهذا الشكل ان .... » ، هى : « ليس بهذا الشكل ؟ ألأنه لايوجد عمدة او قسيس ؟ » ، ثم راحت تصرخ ثانية : « لايعنيني ! ولا احد يعنيه . حتى القساوسة لايعنيهم بما انهم يلغون الزواج حينما لايتضاجع الناس . الا تعرف ذلك ؟ وان الشىء الوحيد الذى يتم الاعتبار به فى نظرهم هو ان يتضاجع الناس ، وليس المهم هو الأرغن ، وانهم هم اول من يعترف بذلك بما ان .... آوه ، ثم اننا لسنا هنا لنتفلسف : هل تريد مضاجعتى ام لا ؟ هل سنظل مزروعين هكذا كالعبط الى مالا نهاية ؟ » ، ثم اضافت فورا : « والشمبانيا ؟ اليس من العرف المتبع طلب شمبانيا ؟ » ، هو : « سسيل ، عر .... » ، هى : « ذلك هو الزر ، اضغط واطلب احضار شمبانيا » ، وبعد ذلك كانت ممدة بجواره ، وفجأة ابتعد عنها ، بحركة عنيفة ، وقد امسكها بيديه ، ينظر اليها ، يتفحصها قائلا : « مابك ؟ » ثم اضاف : « ماهنا لك ؟ » ، وهى ، بعينيها المغمضتين ، كالميتة ، وجسدها الطويل اللين المشدود ، كالميت ، لم يكن جسدا واحدا وانما جسدين عارين باردين على هذا الفراش ، كالغارقين ، عرايا ، صغار فى السن ، جميلان وميتان ، بينما كان البحر فى الخارج ميتا ، مسطحا ، ضخما ، يستمر فى الطفطفة بلا نهاية تحت امطار الرمال ، ملايين وملايين الذرات البيضاء ، بصريرها ، وطقطقتها ، مجروفة بالريح التى تقذف بها فى شكل موجات ثابتة ، تتراكم ببطء ، وهى تقتحم جدران الفيللات المهجورة ، والكازينو ببوابته المتقشرة ، والحاجز نصف المردوم ، وهو ممسكا برأسها الشبيهة بالاموات فى كفه قائلا : « اجيبى . ما الذى حدث ؟ » ولم تتحرك رأس الاموات ، بعينيها المغمضة ، المغلقة ، فقال : « هل تراجعت ؟ يمكننا التوق .... مازال .... » ، فتحركت فجأة ، دبت الحيوية فى وجهها ، واعتراها نوع من الغضب ، من الغيظ الشديد ، وان ظلت مغمضة العينين قائلة : « بالعكس ! » ،

« ومع ذلك كانت عذراء ! لقد تأكدت توا ، ولم يكن علىّ الا ان انظر لأرى الدليل ! » (اعتقد ذلك هو ما قاله فى ذلك البار . بينما كانت الساعة تدق الثانية صباحا ، وقد احتسى كأسا أو اثنتين زيادة فى معدته والثالث نصف ملآن امامه . وربما كانت بجواره عاهرة ما ، آلة من آلات العملة مزودة بملكة الكلام جالسة على ساقه ، تحاول ايقافه ، وهى تحملق فى زميله ، قائلة : « اليس من الدهاء ان تدفع له هذا الكأس ! انت ، سأحتجزك ! الم تر فى اى حالة كان ؟ اذلك مايسمونهم الاصدقاء القدامى .... » ، اما هو فأزاحها بحركة من كتفه وتخلص منها ، وهو يكرر : « كانت عذراء ! » ولاشك انه كان يكررها لنفسه بينما كان يرتدى ثيابه ، وكلاهما صامت فى تلك الغرفة الصامتة ، هو يرمقها من وقت لآخر بنظرة خاطفة ، وهى مازالت جالسة على حافة الفراش عارية ، بوجه غامض ، بلا حرج او ارتباك ظاهر ، كأنها ليست اول مرة تجد نفسها عارية امام رجل ، بعد ان كانت اكثر من عارية ، دون ان تنظر تجاهه ، راحت تلف فردتى جوربها بعناية قبل ان ترتديها . ثم انحنى ورأى لماذا كانت تصر على خفض رأسها بعناد على ذلك الجورب الذى لم تتمكن من ارتدائه ، وحينما ادركت انه ادرك ماهى فيه قالت دون ان تحرك رأسها :

« ارحل ... ارجوك » . لكنها لم تكف عن البكاء . كانت الدموع تنساب ببطء بطول وجنتيها ، بلا ضوضاء . ومرة ثانية ، دون ان تتحرك او تلف رأسها ، قالت للمرة الثانية : « اغرب عن وجهى . سآخذ الترام » . وبعد فترة اضافت : « لم لاترحل ؟ ما الذى تنتظره ؟ » ، وظل هو واقفا ، مرتديا ثيابه ، وقد بدأ يدرك انه خدع ، خش ، هدمته امرأة ، لكنها لم تكن هى ، ثم انتفض على صراخها ، وهى تلقى بفردتى جوربها على الأرض ، ثم بحقيبة يدها التى كانت قد وضعتها على الكمودينو ، ثم القت بالاباجورة التى ارتطمت بالحائط ، وهى مازالت تصرخ ، لكن بطريقة اخرى ، بصوت ملأته الدموع قائلة : « وخاصة لاتنسى ان تشكرها ، هه لا تنسى ! والآن اتركنى وشأنى ايها الاحمق ، اتركنى وشأنى ، اتسمعنى ؟ اتسمعنى ؟ اتسمعنى ؟ » .

- ١٧ -

كان الجو ربيعا . اذكر ان الريح ظلت تعصف بلا هوادة لمدة ثلاثة اشهر ، لدرجة انها حينما كانت تتوقف صدفة (لمدة بضعة ساعات او عدة ايام ـ وليست اكثر من يومين او ثلاثة) يخيل للمرء انه مازال يسمعها ، تئن وتعصف ، ليس فى الخارج ولكن كأنها تعصف داخل الرءوس ذاتها : اصوات مجلجلة ، اصوات خالية من مضمونها . مليئة بالضوضاء فحسب ، وعلى مايبدو ، مليئة بذلك الغبار الذى كان يتوغل فى كل مكان ، تحت الاجفان الملتهبة ، فى الفم ، مضيفا طعمه الى المأكولات ، متداخلا بين جلد اصابع اليد وكل ماتمسك به (اوراق منسية من الامس فوق المكتب ، اطباق ، شوك ملاعق وسكاكين) حائل متسلط ، لايكاد يرى ، محبب الملمس .

وفيما حول عيد العنصرة ، تضاعفت الريح ، ظلت تعوى لمدة ثمانية ايام وثمانية ليال متتالية كالاعصار ، تكسو الشوارع بالاوراق الجافة وافرع الاشجار المكسورة ، تكسر دعائم اشجار الكروم وتنهر الدعائم الاخرى التى كانت تصمد لها بعنف شديد بحيث تلف النبات وضاع كل المحصول تقريبا .

واتى الصيف . ملتهب الحرارة ، جاف هو ايضا ، واكثر غبارا ، لكن الغبار حاليا كانت تثيره السيارات ، ويجرى اطفال الغجر (وجلد اقدامهم الداكن الغامق ، الجامد كالكاللو من اسفل ولونه رمادى كنعل الحذاء القديم) يجرون نصف عرايا او حتى عرايا تماما ، يجرون فى جماعات على جانبى الطريق او فى الضواحى ، لم تعد هناك اية نسمة ، الجو خانق ، ساكن . شىء معتم ينفذ الى الرئة دون ان يشبه الهواء ، يطبق كالشق اللين الثقيل خلف سيارات السياح ، اشخاص يرتدون الكاسكيتات البيض ، والقمصان ذات المربعات ، وآلات التصوير ، وزوجاتهم المرتديات الشورت ، يستعرض سيقانهم المحمرة المرتجفة ، يعبرون الطريق بسرعة (لا يتوقفون الا لحظة التقاط الصور الفوتوغرافية ، بسيقانهم ، وكاسكيتاتهم ، وسوتياناتهم ، مغمضين عيونهم مكشرين من الشمس وهم امام المتاريس القديمة او بوابة الكنيسة) ليصلوا الى الشاطىء بأسرع مايمكن ، ليسترخوا فى شرفة الكازينوهات وهم يحتسون المرطبات على جعير

« البيكابات » وهى تفيض بألحان التانجو والاغانى العاطفية بلا توقف . وكانت المدينة تبدو مهجورة ، ميته ، بمحلاتها المغلقة ، وشوارع وسط البلد شبه الخالية ، الساكنة ، تحت شمس ثابتة ، ولا تدب فيها الحياة الا مساءً ، فى الحوارى الضيقة للأحياء العالية حيث يوجد ذلك الجزء السكنى (لناس لايذهبون الى البحر الا بضعة آحاد من الصيف وفى الخامس عشر من شهر اغسطس ، بالترام المزدحم ، منذ الصباح الباكر ، ومعهم سلات الطعام ، يجلسون على الرمل قرب المياه ، ويخرج الرجال معدات الصيد ، والنسوة بوجوههن المتعبة ، المثقلة ، يشمرن جونلاتهن لكى لاتتكرمش ، ينزعن جواربهن ، كاشفات عن سيقان شديدة البياض ، بعروق نافرة ، ويظلون هناك ، تحت الضوء الساطع ، شبه مذهولات ، مندهشات لفراغهن ، يتأملن الرمال وهى تنساب بين اصابعهن ، بينما نسمات البحر التى تميل قلاع اليخوت ، فى عرض البحر تمزح برفع ثيابهن ، تنفخ جونلاتهن كالبالون حول خسرهن وهن يحاولن انزالها) ، اناس يبحثون دائما هنا ، فى الصيف كما فى الشتاء ، لاعن نضارة الجو ، ولا حتى عن الهواء ، وانما عن تأخير لحظة عودتهم الى تلك الغرف الخانقة ، حيث يسحبون المقاعد ويجلسون امام الأبواب ، النساء يرتدين الاحذية البالية ، والرجال بالقمصان ، وياقاتهم مفتوحة ، واكمامهم مشمرة ، مرفوعة حتى الكوعين تكشف عن عضلات كثيفة الشعر ، وفى الأرض الخلاء كور اللاعبين تثير وهى تسقط نفحات صغيرة من الغبار ، الجاف ، الرمادى ، فى الهواء الجاف ، بلا حركة ، وشيئا فشيئا ، ودون ان تهدأ الحرارة اللافحة ، يأتى المساء رمادى هو ايضا ، خانق ومكتفيا ببساطة بالتحول الى اللون الاسود ، اكثر سمكا ، دون ان يقرر الناس الانسحاب الى الداخل ، بحيث يلمح المرء فى هذه الظلمات المثقوبة ببضعة نوافذ مضاءة همسات متداخلة ، ثرثرة مبهمة ، واحيانا بؤرة ضوء احمر لسيجارة ، وجه خافت ، والظلام ملىء بأصوات لاترى ، ملولة ، ميتة ، ويجلس مونتيس هناك ، غير واضح هو ايضا ، تحت الاوراق الكثيفة ، المظلمة وعديمة الحركة لنفس شجرة الصنار التى جلس تحتها هو وروز جنبا الى جنب تلك المرة الوحيدة فى الربيع ، يتبادلان ذلك الحوار الثنائى الغريب ، وربما كلمات العشق الوحيدة التى سمعها ونطقها فى حياته ، وربما الكلمات الوحيدة التى سمعها ونطقها فى حياته ، وربما الكلمات الوحيدة التى سمعتها ونطقتها هى ايضا وان لم يرد ذكر كلمات الحب بينهما ولا مرة ، وكثيرا ما (سافرت ايضا فى اجازات ، بعيدة بقدر الامكان عن المدينة ، والحر ، والشاطىء المزعج الاصوات) وكنت افكر فيه ، احاول ان اتصوره ، جالسا هنا ، وحيدا ، فى الظلام ، يتحدث مع ذلك الشبح ، ذلك الفراغ ، تعلوه الافرع المتصلبة ، ونفس الاوراق التى رآها تتفتح فى مطلع الربيع ، واهنة ، يعلوها الزغب شاحبة ، متصلبة ولا حياة ، تحت كفن الغبار المتراكم ، وكأنها

توجد فى الخلاء الرحب ، وانما داخل بيت ، فى احدى تلك الغرف الخالية ، المهجورة ، التى لم يسكنها اى شخص بعد وفاة ما ، او بعد فترة حداد ، ليست شجرة : وانما باقة من تلك الباقات الزابلة التى تجف ببطء قبل ان تتساقط بدورها غبارا ، وكأن السماء المعتمة المكتومة تثقل على البيوت ، وتحبه هو ، والاشجار المتصلبة ، والميدان بأسره بضوضاء ، اصواته الهامسة ، المترنمة ، فى مكان مغلق من كافة الاتجاهات ، لايرحم ، ذى رائحة متسلطة هى رائحة الموت والانطواء .

وكان يأتي ايضا اثناء النهار ، حينما يكون لديه بعض الوقت ، بين مشوارين ، يجلس ، يظل هنا يتأمل حذاءه دون ان يراه وقد تحول الى لون الغبار الرمادى ، وحقيبة اوراقه الضخمة بجواره ، ويعلو وجهه نفس ذلك التعبير الغبى ، المنهمك ، الذى اعتادوا ان يروه به ، وهو يتنقل بين كتبة المحاميين او الموثقين ، وموظفى المكاتب حيث كان يمضى ، ثانية ، ساعات وهو منسى على احد المقاعد ، يرفع رأسه كلما عبر الساعى الغرفة ، يتبعه بتلك النظرة الشبيهة بالكلاب ، نظرة متساءلة ، متعثرة وطيبة ، الى ان يختفى الساعى ويعود الى الانتظار ، وفى النهاية ، يبدو انهم ملوا ، ملوا من وجوده هنا وكأنه عتاب حىّ ، كأنه توسل حىّ ، لايمكن تجاهله ، ولا طرده ، يعود يوما بعد يوم ، لأنهم سمحوا له اخيرا برؤيتهما . قال لى انهما لم تعودا بتلك الضفائر التى اعتادت روز ان تجدلها على هيئة مقبض الابريق وتمسكها بشريط ، قال لى انهم قصوا شعرهما ، وانه كان الآن قصيرا مثل شعر جان دارك ، ربما لان ذلك اكثر نظافة . كان كل شىء نظيفا : مرايلهم البيج المتشابهة ، الارضية اللامعة ، غرفة الاستقبال ذات رائحة الشمع والكافور بكنبة من القطيفة الناصلة . والمقعدان الوثيران ، والكراسى المرصوصة حول الجدران ، تعلو احدهما لوحة زيتية (لم يتمكن من النظر اليها ، قال لى انه طوال الوقت الذى امضاه مع الطفلتين كان يشعر بوجود اللوحة عن يساره ، غير واضحة : شىء ما أشبه بنساء واقفات متشحات بطرح زرقاء ، ومسامير ، ونقط دماء مرسومة بعناية على اقدام مثقوبة ، وسماء سوداء) ، وكان شيش النافذة نصف مغلق ناصية الحديقة ، الضوء مغبّر ، والعالم الخارجى لافح ، ملتهب . لكننى لم اكن بحاجة ليقص علىّ ذلك . كان يمكننى تخيله هو جالس هناك ، على حافة احد المقعدين الوثيرين وبجواره حقيبة اوراقه التى لاتفارقه والتى دفس فيها كل مايمكنها وما لايمكنها ان تحويه ، يحاول الابتسام قائلا : « كلى انت ايضا ، الا تريدين ؟ » وهى ، (تريزا) مستقيمة ، مشدودة ، بعينيها السوداوتين ، ووجهها الاسمر الداكن ، وهو ممسك بقطعة الجاتوه بطرف اصابعه ، يظل ثابتا ، يده مرفوعة فى الهواء ، بينما يتبادلان النظرات ، والطفلة الصغرى تجلس على كرسى وقد لطخت الكريمة وجهها حتى اذنيها ، وما زال هو وتريزا يتبادلان

النظرات ، الى ان نجحت فى القيام بمجهود تحريك يدها ، ومدتها لتأخذ قطعة الجاتوه ،بينما كان يحاول الا يرتجف ، فكه مشدود ، صارم ، وشفتاه تحاولان التحرك اكثر من مرة دون ان يخرج منهما اى صوت ، ويحاول السيطرة عليهما . يحاول ايقاف ذلك التوتر العصبى الذى يدفعهما الى حركات مقتضبة ، ونجح بعد فترة ، لكن زوره احتبس ، فاخرج صوتا لم يشبه الصوت فى شىء ، فتنحنح ، وابتلع ريقه عدة مرات ، واخيرا تمكن من قول : « الحديقة هنا جميلة ، يبدو ان ، انه ..... » ومرة ثانية احتبس صوته ، راحت تفاحة آدم تعلوه وتهبط كأنه يحاول ابتلاع شىء ما ، وهى ، لم تعد تمثل انها تأكل قطعة الجاتوه ، ظلت واقفة بفمها المضموم ، وعلى شفتيها بعض الفتات المتلاصقة ، ترمقه بتلك النظرة الحزينة ، الغامضة ، تلك الحركة اللازمة التى ترجف شفته السفلى دون ان يتمكن من عمل شىء لوقفها او لمدراتها ، الا انه راح يتمخط بعد ان مسح اصابعها (واحتفظ بالمنديل لفترة اطول مما يحتاجها المرء ليتمخط فحسب) ، وحينما ابعده عن وجهه ، ابتسم هذه المرة وهو يقول : « الآن .. » لكنه اضطر فورا الى الابتلاع ، وخفض رأسه ورفعها ، وابتسم ثانية وهو يقول : « والآن سيصبح كل شىء افضل . سيمكننا ان نتقابل كثيرا .... اى انهم سمحوا لى ان احضر كل اول خميس من الشهر ، وعندئذ .... » فقاطعته تريزا : « كل .... فقط ! كل ..... » ، لكن سرعان ماسكتت ، خفضت رأسها ، ومدت يدها بقطعة الجاتوه الى اختها ، وظلت محنية عليها لفترة طويلة ، تعاونها على الاكل ، تمسح لها وجنتيها اول بأول ، دون ان تبتعد عنها ودون ان ترفع رأسها . ثم قال لى انه ادرك انه قد مضى فترة طويلة وهو جالس وان كان يخيل اليه انه وصل منذ لحظة : لم تكن هناك ولاقطعة جاتوه واحدة فى العلبة ، وراح يفكر : « هل هل هل ليس معقولا ... ليس ... » ، وفى هذه اللحظة دخلت الراهبة ـ كان وجهها ممتلأ ، سمينا وناصعا ، ويداها ممتلأتان ، سمينتان ، ناصعتان ، لوحت بهما بسرور وهى تقول بصوت مداعب : « ها هما ! يجب عليها الآن ان يذهبا .... » بينما هو يردد فى صمت : « لا لا لا لا ليس الآن ليس .... » ، وسمع صوت الخشخشة المنبعث من الجونلة الطويلة ، وشم رائحة اللحم الشاحب ، المنتفخ . المحبوس ، بينما كان يسمع صوتها قائلا : « هيا .... » ثم تضيف : « ارجو ! . لقد افرطوا فى تدليلنا .... » ، وحينما انحنى لتقبيل الطفلة الكبرى ، قال لى انه شعر بها كقطعة الخشب ، شفتاها مضمومتان ، بكل قواهما ، بحيث عندما وضعت الراهبة يدها على كتفها ، يبدو انها لم تشعر بها ، واستمرت فى وقفتها المشدودة فى نفس المكان الذى قبلها فيه ، تضم على صدرها بذراعيها الطويلتين علبة الحلوى بغلافها اللامع ، ووضعت الراهبة يدها ثانية على كتفها ، لكن هذه المرة بشكل اعنف ، يد سمينة بيضاء وكأنها يد من شمع ، فراحت الطفلة ، تسير الى الوراء ، وهى تجاهد لتبتسم قائلة ، بسرور :

« الى اللقاء . اراك قريبا . ان ... » . بينما الوجه الصغير الفزع والمأساوى مازال يرقبه ، وقد كان شبيها بمومياء الاينكا اكثر من اى وقت مضى ، ولوح بيده ثانية لكنها لم تجبه ، لم تتحرك اية عضلة من وجهها ، والشىء الوحيد الحى كانت عيناها ، لايمثلن احتمالهما ، وعندئذ استدار مسرعا وخرج الى الردهة .

كانت عربة بائعة الآيس كريم والمصاصات مازالت فى نفس المكان ، عند حائط الثكنات القديمة ، ومن مكانه حيث يجلس على الاريكة ، كان يمكنه رؤية الاطفال وهم يندفعون حولها ، يتزاحمون ، يشبون على اطراف اصابعهم فى محاولة لرؤية مابداخل الثلاجة كلما رفعت المرأة الغطاء المعدنى اللامع الذى على هيئة القبعة الصينية ، وتدخل يدها وتعود بها وعلى طرفها الملعقة بقطعة الچيلاتى بألوان شاحبة : وردى ، اخضر فاتح ، او اصفر ، وكان هناك لفيف من النسوة بأباريقهن ودلائهن حول مضخة الماء ، والصوت المعدنى لارتطام الدلاء ، وخطواتهن الثقيلة ، المتعاظمة ، حينما يعدن باردافهن المثقلة ، وشعورهن السوداء اللامعة ، واحذيتهن البالية ، وثيابهن المرتقة ، المتعددة الألوان والملكية . كان يظل جالسا وربما متسائلا : « اذا استطعت فحسب ان افهم .... » وبعد فترة يضيف : « لكن هل هناك شىء مايمكن فهمه ؟ » - « لأنه قال لى فيما بعد : الا توجد كلمة لذلك ؟ اليس ذلك مايسمونه ... ماهو ذلك ؟ اعتقد انهم يتعلمونه فى المدرسة فى الصف السادس . ان لم يكن فى سنة اولى ، لكننى لم اعد اتذكر .... نعم : تبديل . ها هى . الم تكن الا شىء من هذا القبيل فحسب ، تعرف : كأنها خلايا او اى شىء أخر ، تتعلق بطريقة ما ، ثم تتخلل ، وتسقط ترابا ، فتاتا ، لتتجمع ثانية بطريقة اخرى ، بشىء من التعديل الطفيف ، ذرة ميكروسكوبية اكثر او اقل ، لكنها دائما نفس الشىء بما انها تعيش . اذن ؟ » .

كنت انظر اليه (كنت قد عدت الى المدينة لكى أقضى فيها بضعة ايام وكنا نجلس فى شرفة مقهى ، فى وسط البلد ، نتأمل النخيل المترب بطول الطريق ، مثل نباتات خضراء مرصوصة وقد نسوا تنظيفها ، مثلما يحدث فى البيت ، او فى صوبة مهملة - او كأننا جالسان دون حراك امام اكوابنا ونحن نشعر بالعرق الذى ينساب ببطء علينا . لكنه كان اشبه بصوبة من ايام سنة الف وتسعمائة ، والنباتات المتربة الخضراء ، ونحن محبوسان بداخلها : : كان صامتا الآن ، بوجهه الحزين ، الجامد . وملامحه المشدودة ، وفجأة اعترانى غضب لايمكن كبح جماحه ، غضب طاغى وغير عادل ، بسوء نية ان امكن القول ، مثل ذلك النوع الذى نشعر به احيانا امام مريض نجاهد لالقاء اللوم عليه باصابته بالمرض ، لا كما ندعى التعبير عنه ، لانه اهمل ، لكن لأنه اخطأ بتجسيد المرض امامنا ، بتذكيرنا بالمرض ، بالمعاناة ، او بالوجود الازلى للمرض وللمعاناة ، فقلت اذن :

« يا الهى ! ما الذى تنتظره لتدخل فى الدير ؟ » .

هو : « دير ؟ » .

انا : « نعم . تخيل . لقد اخترعوا الاديرة من اجل ذلك . لحماية امثالك من الناس ، ليضعوهم فى حمى من الأزية .... آه ، ثم قلت بسرعة : وتتفوه بالحماقات ! انه الجو . انه ذلك الحر العاهر . ذلك الصيف اللعين . انه يصيب الانسان بالبله تماما . من الافضل لك ان ترحل من هنا ، ما الذى ....

ـ أرى ؟ هل قلت : أزى ؟

ـ يا الهى ! كنت افرح . انه سبب ذلك الحر اللعين . انت تعلم تماما انك غير قادر على ازية ذبابة ، حتى وان اردت ذلك . انك .... انه ذلك الحر . لماذا لاترحل ؟ لماذا لاتعود الى بلدك ؟ الآن وقد نجح الاشخاص الذين دفعت لهم المال فى ان يخلصونك من تلك الكروم اللعينة ! ـ لا امزح . كم دفعت للمحامى لتقنعه بان يجعلك تخسر القضية ؟ لا شك انك دفعت الثمن المطلوب فالمحاميين لايحبون خسر قضاياهم . ان ذلك يمثل دعاية سيئة بالنسبة لهم . لذلك .... » .

لكننى لم افلح حتى فى ان اجعله يبتسم . لم يكن ينصت الىّ . لا لم ينظر الى اكثر مما اهتم بالذهاب الى المحكمة فى ذلك اليوم الذى كانت قضيته ضد المسجل تنظر فيه ، لأنه كان مرتبطا فى ذلك الصباح او فى فترة بعد الظهر بشىء اكثر اهمية ، كأن يظل جالسا على الاريكة فى الميدان او ان يجلس فى المكاتب الادارية على امل ان يلحظ وجوده احد الموظفين . لذلك لم يحدثنى عن هذا الموضوع . على اى حال ربما لم يكن يعرف شيئا ، او حتى لم يهتم بالسؤال عما حدث ، واكتفى بأن سمعه من المحامى وهو يخطره به مساءً (او ربما فتح الخطاب الذى ارسله له المحامى ليقرأه فى اليوم التالى) قائلا انه خسر القضية ، فاكتفى بقول : « آ ـ ! » او « حسنا ! » ثم يدفس الخطاب فى قعر حقيبة اوراقه ، لينضم الى رزمة الاوراق التى تملأ الدوسيه وينساه ليسرع الخطى الى مكتب آخر ، بحيث لم اعلم التفاصيل الا من الموثق ، اى ان المسجل قد قدم فى الوقت المناسب عدة اوراق موقعة من والد مونتيس ، وبها مرتبات مؤخرة ، متراكمة عدة سنوات ، بالاضافة الى اعتراف بخدماته الحسنة الامينة والذى قالت عنه ألسنة السوء ان والد مونتيس قد كتبها خطأ فى لحظة اضطراب عقلى جعله يضع اسم الأب بدلا من الابنة ، اذ ان نوع الخدمات الذى كان ينوه عنها لا يقصد بها عادة مايتم خلف المحراث او منحيا على الأرض التى لا تنتهى لكن تتم فى ذلك الوضع الافقى حيث العرق والزفرات وتعد عكس حركات العمل انها اعمال يعد الحقل المحروث فيها ليس الا ذلك المثلث المشعث الداكن ، ذلك الشق المفتوح دواما ، المشغول بلا هوادة ، لا يقفل ولا يشبع ابدا . غير ان المسجل (او ذلك الثالوث الغريب : الرجل ذو الوجه الترابى الشبيه بالجثة ، والمرأة

المتشحمة بالسواد ، والابنة الصارخة المساحيق ، يحضرون المرافعات ، وهم جالسون فى نهاية القاعة ، بلا اى تعبير ، مكتئبين قساة ، كأطياف انتقامية ، مهانة ، تدفع عن الحق والبراءة المنحلة) قد كسب القضية ، ولم يكسبها فحسب بل وحصل على تعويض فقد وجد طريقة يبلّغ بها مستشارى مونتيس (رجال القانون الذين تركوه ينتظر الساعات الطويلة على كراسى او ارائك فى ردها تهم لكى ينعموا عليه بهذا الرأى السديد) الذين خدموه بان اطلعوه على النتيجة بارسالها مع احد السعاة : بل ولقد حصل المسجل على اكثر من ذلك لأن مونتيس وجد نفسه فى نهاية الأمر فى مأزق يتضاعف مع نتيجة المحصول المقبلة (محصول بضعة عناقيد العنب او بضعة الحبات التى نجت من اعاصير الربيع) بحيث رضخ الى الشىء الوحيد الذى بقى له ان يفعله ، واول شىء كان يجب عليه ان يفعله فور مجيئه ، اى ان يبيع ، وقال الموثق : « وان لأ سألك ان كان هناك أى داع لاثارة كل هذه الروايات لكى يصل ، فى نهاية الامر ، الى هذا الوضع ؟ بالاضافة الى وقع هذا عل ..... » .

ثم قال لى : « لأنه كان هنا ، يجلس ثانية على نفس هذا المقعد الذى جلس عليه اول مرة منذ حوالى ستة اشهر ، بنفس ذلك الشكل السارح فى مجال آخر بينما هو مهتم بما ، أقوله وكأننى احدثه عن ملكية شخص آخر ، واعمال شخص آخر ، بل ولم يناقش حتى السعر الذى عرضته عليه ، ولم يقاوم ، وانما قال : « حسنا . موافق .... » دون ان يكف عن النظر الى هذه اللوحات القديمة التى تمثل البلدة والتى تركتها هنا لأنها كانت دائما فى ذلك المكان ، بحيث قلت له فى نهاية الأمر : « ان كانت تروق لك الى هذا الحد ، فاننى اهديها لك . وستعطينى صورة فوتوغرافية لأضعها مكانها . اتفضل .... انها لك ....

ثم قلت : اتفضلها كهدية مقدمة من المكتب .... وانطلق ضاحكا : « جائزة ! على حد قولك ! وفى النهاية كنت قد مللت النظر اليه هنا . ها ... ها .... ها .

فقلت : ظريفة منك ان تفكر فى ذلك . اننى واثق انك اسعدته .

فقال ـ هل تسخر منى .

فقلت ـ اننى جاد فيما اقول لاشك انك اسعدته بأكبر قدر من السعادة . انه يعشق كل ماهو ثابت ، وبما ان تلك الاحياء من المدينة قد تهدمت تقريبا جميعها ، فلا يخشى ان يراها تختفى ..

ـ ها ها ها ! ها ها ها ! ها ها ها ! .. »

والآن أجلس بجوار مونتيس فى شرفة ذلك المقهى فى بعد ظهر ذلك اليوم المترب من شهر سبتمبر ، كنت صامتا ايضا ، كنا جالسين دون ان نقول شيئا ، هو بذلك الوجه المحبط الذى لايمكن تبين مشاعره ينظر دائما الى الجانب الآخر (ترى تجاه اى شىء ؟ : لم يكن ينظر الى النخيل الثابت الرمادى ، المعلق بعناء

فى الهواء الثقيل ، الذى لايمكن استنشاقه . ولم يكن ينظر الى المارة او الواجهات ، ولا الى حركة الشارع ، ربما كان ينظر الى كل ذلك فى آن واحد . ليس وهو شارد وانما بالعكس بشىء من الشغف ، او النهم ، وكأنه يتوقع ان يجد الاجابة على احدى هذه التساؤلات اليائسة ، الهذيانية ، المتسلطة) . وعند ئذ تركته وانصرفت ، لكننى استدرت لأراه مرة اخيرة ، كان ما زال جالسا امام كوبه الذى ماكاد يلمسه بشفتيه ، وكانت آخر رؤية احتفظ بها منه ، وكأنْ ذكراه ماكان يجب ان تكون الا ذلك : هذا السؤال بلا اجابة ، وهذا التعبير المتوسل المركز وغير المصدق فى آن واحد ، نفس التعبير ، نفس النظرة التى لابد وان تكون اكتشفتها الراهبة بينما كان واقفا امامها (كان اول خميس فى الشهر التالى) ، يتهته ، وتكررها له للمرة الثالثة ماسبق له وسمعه مرتين وكأنه لم يفهمه ، او يرفض فهمه (واقفا ممسكا بحقيبة يد اوراقه المليئة بالحلوى واللعب ، وعلبة الجاتوه التى تقطر ببطء ، يحاول النظر الى الردهة من فوق كتف الراهبة ، تجاه غرفة الاستقبال ، وكأنه تخيل انها تخفى عنه الطفلتين ، تكذب ، او تمزح ، تساومه ، وتواصل هى ابتسامتها ، ملوحة بيديها الممتلئتين الناصعتين الشبيهتين بأيد من الشمع بينما وجهها الممتلىء ، الهادىء ، الغبى يبتسم بعناد ، وراح هو يصرخ تقريبا الآن قائلا :

« ليستا هنا ! تقولين : ليستا هنا ؟ » ، وتكرر هى بنفس ذلك الصوت المدندن ، المتلاعب النواح المميز للراهبات : « نعم ، لكن لاتد ... لقد اخذوهما . لقد رحلتا ، لا ، لا استطيع .. لا نعرف .. انهما بصحة جيدة ، لاتقلق ، انهما ... لا ، الراهبة الرئيسية لاتعرف اكثر منى . انها الادارة ، ارجوك ، ليست منا ، لقد اخذوهما ... » ومازالت يدا الدمية تخبط فى الهواء كالاجنحة امام بطنها ، امام صليبها المعدنى الضخم المتدلى على صدرها المغطى بالتيل المنشى الناشف كالكرتون » .

وقد كتبت له ، دعوته عندى ، ليسترح قليلا ، ليغير الجو ، والافكار . لكن ربما كان لايرغب فى ذلك فيه بالتحديد . لانه تهرب ، اجابنى باعتذارات مبهمة . ولاشك انه كان لديه ماهو اهم من الراحة ، يود الحصول عليه اولا ، قبل ان يتمكن من التفكير فى الراحة ، ولم يكن فى وسعه ان يصل اليه الا عبر نفس هذا الشكل . شىء لم يستطع اكتشافه الا هناك ، وهو جالس على تلك الاريكة حيث كان يمضى ايامه دون حتى ان ينتظر اول خميس للشهر التالى ، وربما دون ان ينتظر اى شىء مطلقا ، دون البحث عن اى شىء ، ولا حتى عن اجابة ، مكتفيا بالبقاء هناك ، فى نفس تتابع الساعات البطىء المتماثل ، وتتابع الايام ، ونفس الديكور ، الثابت ، تلك الأرض العتيقة المبجلة ، ذلك العالم القديم الملوث الذى يشرأب مع كل شروق بعذريته الاولية تحت الضوء الساطع ، بلا غموض ، جلى : السماء ، البيوت ،

الصدى الأزلى للدلاء المتخبطة ، الاطفال المتلاحقة ، العرب المتضورين جوعا الجالسين بطول الجدران ، عربة بائعة الچيلاتى التى تستبدله فى الشتاء بلقمة القاضى ، ومعادن الدراجات المتداخلة بطول الازقة الضيقة ساعة الظهيرة ، ورائحة السردين المشوى فى الهواء الطلق امام كل باب ، وجماعات الغجر بخطبهم الطويلة وقمصانهم الناصعة البياض ، واسنانهم البيضاء الناصعة ، وقبعاتهم الداكنة ومناديل رقبتهم الحريرية الوردية ، الخضراء الباهتة ، السماوية ، والجدران المخربشة التى تعلوها الرسوم برءوس تتضور جوعا شبه ميتة منقوشة بالمسمار على الجص الهش ، ورسوم النذور على هيئة قلوب ، ورسومهم الصخرية القضيبية ، وقطعان الحيوانات الباهتة الوحشية ، الحمير الوحشية ، افيال هانيبال ، نمور تقفز خارج الاعلانات الممزقة من السيرك ، واعلانات الاضراب ، والاجتماعات ، والشعارات الثائرة الغاضبة التى لاتكل ، والآمال التى لاتكل ، والوجوه الشعثة الشعر ، والشعور السوداء الطويلة المزينة المتدلية من النوافذ بين قصارى الزهور المصنوعة من علب المحفوظات القديمة ، والاصوات الحادة المنادية .

مارسيييييييل ! او باكيييييتا ! ، بصراخ متصاعد ، مموج ، يمتد ويخبو ، والكلاب اللينة الخطى ، العمودية ، التى تتشمم اكوام البقايا والنفايات عند نواصى الأزقة حيث تغوص فيها الشمس كالوتد ، دعامة من الضوء المنقط بنقط الذباب البيضاء ، والذبابة الواقفة ، على الوجه المتسخ لاحد الاطفال ، والشبان الذين يميلون بمقاعدهم بعدم اكتراث فى شرفة المقهى الصغير امام الموائد الصغيرة الخالية من المشروبات ، يصفرون رغبة عند مرور فتاة او سيارة ، يتبعونها بعيونهم ، واضعين ايديهم فى جيوبهم ، وجفونهم نصف مغمضة ، والرءوس مائلة قليلا لتفادى الدخان المتصاعد من السيجارة الملصقة فى ركن الفم ، دون الكف عن التأرجح الى الامام والى الخلف ، ولاعبى الكرة الارضية الازليين ، وتغريد طائر وحيد فى قفص يأتى من آخر الفناء عبر الاسطح ، وعبر الزمان والصمت : شىء يعود فى النظام الرتيب ، الذى لايقهر ، حتى الريح نفسه ، يعود ثانية ، اولى هبات ريح الخريف تهز تندة المقهى برتابة منقطعة ، تلويها ، تنفخها وتخفضها بطرقعات جافة ، مثل الطلقات النارية .

وبعد فترة وجيزة ، ستحل الريح ثانية ويظل حتى الصيف القادم ، وعما قريب ستعود ثانية وتعصف على الأرض المنبسطة ، لتقتلع آخر الاوراق الحمراء للكروم الاحمر ، ويعرى الاشجار المنحنية ، تحت عصفه الجامح ، بلا هدف ، وكأنه محكوم عليه ان تظل يهلك بلا نهاية ، بلا اى امل فى نهاية ، يعوى ليلا فى انات طويلة ، وكأنه ينتحب ، يحسد الرجال النائمين ، والمخلوقات العابرة الفانية على امكانية النسيان ، والسلام على تمتعها بمزية الموت .

تمت

كتاب الهلال يقدم :

رحلاتى حول العالم

بقلم

د . نوال السعداوى

يصدر فى : ٥ فبراير ١٩٨٦

روايات الهلال تقدم :

بنت من شبرا

بقلم

فتحى غانم

تصدر فى : ١٥ فبراير ١٩٨٦

مجلة

الهلال

مرآة العقل
العربى
خلال قرن
من الزمان

أول
كل
شهر

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

أجمل هدية لأسرتك

اشتراك سنوى فى

روايات الهلال

تخفيض ٢٠٪

- ● تقدم كل جديد من القصص العالمى .
- ●● تقدم كل ابداع عربى لكبار الروائيين والشباب .
- ●●● خير رفيق فى سفرك .

الأسعار

اسعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ١٤٠٠ ق . س ، لبنان ١٤٠٠ ق .ل ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٩٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، تونس ١٥٠٠ مليم ، الخليج ١٢٠٠ فلس ، الصومال ١٣٠ بنى ، لاجوس ١٢٠ بنى ، عدن ١٤٤ سنتا ، لندن ١٥٠ سنتا ، اثينا ٢٠٠ دراخمة ، كندا ٥٠٠ سنت ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، استراليا ٦٠٠ سنت ، السودان ٢٥٠ ق . سودانى ، المغرب ١٥٠٠ فرنك ، غزة والضفة ٧٥ سنتا ، داكار ١٠٠٠ فرنك ، اليمن الشمالية ١٥٠ بنى ، ايطاليا ٣٥٠٠ ليرة .

- -

قسيمة الاشتراك

الإسم : ______________________

المهنة : ______________________

العنوان : ______________________

____

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٥/٧٦٤٨

الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ - ١١٨ - ٢٠٤ - ٨

اشترك في روايات الهلال

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول
الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
تليفون ٧٤١١٦٤

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

٧٥ قرش

هذه الرواية

تقدم روايات الهلال ريح كلود سيمون ، الاديب الحائز على جائزة نوبل فى الآداب عن عام ١٩٨٥ ، والذى كان حصوله على الجائزة إعتراف بتيار الرواية الحديثة فى فرنسا ، فهو الاب والرائد لهذه المدرسة ، التى شغلت الأوساط الأدبية منذ الخمسينيات .

وقد حان الوقت ليطلع القارىء العربى على ابرز أعمالها .

وعنوان رواية الريح الكامل هو : " محاولة ترميم مذبح قديم " والتى نشرت فى فرنسا عام ١٩٥٧ ، وبطلها شاب نشأ مع أمه بعيدا عن أبيه ، وبعد ٣٥ سنة ، تموت الام ويموت الأب ويرث الشاب والده الذى لم يره .

وتتابع الرواية على شكل لقطات سينمائية ، كل الأشياء لها حضورها الواضح ، والمكان يعبر عن ذاته بعبقرية نادرة ، ومن خلال اللقطات يقدم سيمون نقدا اجتماعيا ساخرا .

والرابط الأساسى للأحداث هو صوت الريح التى تكنس كل مايعترضها فى هذا العالم العجيب ، حادث سرقة ، خيانة زوجية ، جريمة قتل !

فالرواية تتحدث عن مأساة الاستمرارية وملل تكرارها ، وتقول وقائعها أن الموت هو أجمل مافى الحياة ، فهو نقمة الحياة الحقيقية .

والريح واحدة من الروايات التى يسعد روايات الهلال أن تقدمها ، فى محاولة مستمرة للوصول الى الشواطىء الأخرى للرواية العالمية فى قرننا العشرين .